رواية

محمد صلاح العزب

كل شيء هادئ في القاهرة

الدار المصرية اللبنانية

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

رواية

محمد صلاح العزب

كل شيء هادئ في القاهرة

الدار المصرية اللبنانية

العزب، محمد صلاح،
كل شيء هادئ في القاهرة: رواية/ محمد صلاح العزب. - ط1. -
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.
272 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 - 208 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 25618 /2018

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah. com
www. almasriah. com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2019م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد مراد

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

يومًا ما.. سينبُت

لكل مُحبٍ مثلي

جناحان

حتى يرفرف ببساطة

حول من يحب

إبراهيم عادل

مدخل

خرجت فيروز من باب الحمام، في شقتها الواسعة بحي مصر الجديدة، وهي تلف جسدها ببشكير أبيض، بدت وهي خارجة وسط البخار بكتفين وساقين عاريتين كبطلة لأحد أفلام مقاولات السبعينات.

تناولت سيجارة من فوق التلفزيون، وأشعلتها، اقتربت من الشباك المطلّ على حديقة الميريلاند، أغلقت الستارة، أسقطت في حركتها السريعة الفوطة التي كانت تغطي جسدها، فتعرت، انحنت والتقطتها دون أن تفردها على كتفيها مرة أخرى، ثم جلست على الأرض، أمسكت هاتفها المحمول، وطلبت رقما عشوائيا، ظلت تنتحب، والصوت على الجانب الآخر بدا متوترا:

- آلو، آلو، آلو، من حضرتك؟!.. كيف يمكن أن أساعدك.. لا حول ولا قوة إلا بالله، اِهدئي من فضلك لكي أفهم.. آلو.. آلو.

ثم أغلق الخط.

***

سلام عليك.. افتقدتك جدًّا

- 1 -

اتفقنا على العودة.

وقفتُ أخلع ملابسي فور عودتي من الجريدة ليلا، أمام التلفزيون الذي يعرض مشهدا من مسلسل عربي رديء، له شعبية واسعة، لمحت ممثلة في دور ثانوي تشبه حبيبتي السابقة بسنت، انتبهت قليلا، وابتسمت وأطفأت التلفزيون.

توجهت إلى النوم حريصا على ألا أصدر أي صوت حتى لا أوقظ دينا زوجتي. لكن دينا كانت تنظر إليّ من مكانها على السرير في الضوء الخافت للغرفة، تنتظرني، تجاهلت نظرتها نحوي، كأنني لم أدرك أنها متيقظة.

تمددتُ وأعطيت دينا ظهري، وظلت بسنت مسيطرة على تفكيري.

استيقظت واستحممت، ثم فتحت الياهو ماسنجر من على الموبايل، فوجدت رسالة من بسنت على الأوف لاين:

- حلمت بك.. هل أنت بخير؟

لم أفهم الصدفة الغريبة أن أفكر فيها بالأمس فتتجسد أمامي في رسالة بهذا الشكل صباحا، استيقظت دينا واقتربت مني فقبلتها، ابتسمت لها، وأنا أغلق الموبايل، وشعرت أنه يجب أن نشكر الله على أن أفكارنا محصنة داخل خزائن حديدية في رؤوسنا لا يمكن لأحد الاطلاع عليها.

دخلت دينا تعد الإفطار، فرددت على بسنت.

- صباح الخير يا أستاذة.. كيف حالك؟

مرّ حوالي نصف ساعة حتى جاء ردها مقتضبا:

- أحسن منك.

عام ونصف و6 أيام منذ الرسالة الأخيرة بيني وبين بسنت على الفيس بوك، افترقنا بعدها، بعراك حاد، أساء فيه كل منا إلى الآخر، ليلتها أغلقتْ حسابها عني تماما بلوك، لم أمسح رقمها من هاتفي، ولم يعد بيننا أي اتصال سوى بعض رسائل قصيرة S.M.S مني في المناسبات الرسمية كالعيدين وشم النسيم ورأس السَنة، وسط رسائل موجهة لمجموعة كبيرة من الأصدقاء، بلا خصوصية، كنت أضع بسنت بينها، كنوع من التذكير المستمر بي، دون إبداء رغبة حقيقية في الرجوع، لم ترد هي على أي منها ولم أتوقف عن إرسالها كلما جاءت فرصة.

في تلك الفترة التي انقطعنا فيها أنا وبسنت، تزوجت دينا.

قررت أمي بيع آخر قيراط من فدانيْ الأرض اللذين ورثتهما عن أبيها لكي تسافر إلى العمرة بثمنه، طلبت مني مرافقتها مع المشتري إلى مكتب الشهر العقاري، لكنني رفضت وقلت لها:

- أنا لا أحب مشاوير الحكومة.

في مكتب التوثيق وقفت أمي في طابور قصير أمام الموظفة وبجوارها أبي، حتى دخلت دينا المكتب، يومها وصفتها أمي لي بعد أن عادت:

- ملكة جمال، وأدب، وأخلاق، وذوق.

سألتْ أمي في المكتب، حتى عرفت أن ملكة الجمال اسمها دينا، وأنها ابنة موظفة التوثيق مدام سناء.

بعد أن انتهت مدام سناء من تحرير وتوثيق عقد البيع، جلست أمي بجوارها وأفرطت في الإشادة بدينا، وطلبت منها عنوان بيتهم، وأخبرتها عني قائلة:

- ابني صحفي قد الدنيا.

من لحظة تعارفنا الأولى أدركتُ أن دينا ملاك يمشي على قدمين، مذهلة بكل حسابات العقل والجمال، اتفقنا على فترة خطوبة قصيرة، خرجنا فيها الخروجات التقليدية، الكورنيش، وبرج القاهرة، وركبنا الأتوبيس النهري، وباخرة القناطر الخيرية، وذهبنا إلى بعض الكافيهات، حتى تأكد كل منا من ميله إلى الآخر، استطاعت دينا أن تنسيني بسنت تماما، وحين شعرت أنني أحببتها، حددنا موعد الزفاف، لأنني لم أكن لأقبل بزواج صالونات تقليدي.

أنجبنا بعد 11 شهرا فقط طفلتنا كرمة، وترقيتُ في الجريدة إلى منصب مساعد رئيس التحرير، وانتقلنا وكرمة عمرها 3 أشهر إلى شقة جديدة 3 غرف وريسبشن قطعتين، و2 حمام، تشطيب سوبر لوكس بأول

شارع الهرم، بعد أن كنا نسكن في شقة غرفتين وصالة ضيقة بآخر فيصل طوال العام الأول من الزواج، سافرتُ في رحلتيْ عمل قصيرتين إلى لبنان وسوريا، وأصدرتُ كتابا صحفيا، واشتريت سيارة هوندا - بريليود مستعملة موديل 1992 ما زلت أعاني في ركنها، لأنني سائق مبتدئ، استخرجتُ رخصة قيادة بالواسطة، دون اختبار، وفي أول يوم قيادة بالرخصة كسرت فانوسا من الفانوسين الأماميين للسيارة التي حذرني من اشتريتها منه من ندرة قطع غيارها لكي يخلص ضميره أمام الله كما قال.

ردُّ بسنت المقتضب، هو شخصيتها، مشاعر مشتعلة لا يظهر منها على السطح سوى أقل القليل، تنتظر مني دوما، أن أنبش أكثر وأكثر، حتى أخرج منها كل ما تحس به.. قالت:

- أحسن منك.

- بماذا حلمت؟

- حلم سيّئ.. هل أنت بخير؟

- بخير.. أين أنتِ؟

- في البيت.

- سأمر عليكِ تحت البيت بالسيارة.. أمامي نصف ساعة.

- اشتريت سيارة؟

- نعم، ستحبينها، تشبهك.

- الله يرحم.

خرجت دينا من المطبخ، فأغلقتُ الموبايل سريعا، قبلتني وقالت إنها أعدت الرضعة لكرمة، ثم قبلتني مرة أخرى وجلست أمام التلفزيون تتابع المسلسل باهتمام وهي ترضع كرمة التي تبكي بكاء حادا.

طلبت مني دينا أن نذهب إلى الطبيب بالبنت، فأخبرتها أن لديّ اجتماعا مهما بالجريدة بعد نصف ساعة، فقالت إنها ستتصل بعم صبحي سائق التاكسي الذي تتعامل معه ليوصلها إلى الطبيب، قبلتُها وقبلتُ البنت وفتحت باب الشقة، وخرجت.

نزلت السلم للقاء بسنت قفزا، كأنني عدت طفلا صغيرا.

- 2 -

نزلت فيروز من بيتها، لديها رغبة قوية في أن ترى زوجها اليوم.

تقف أمام العمارة في مصر الجديدة، تستوقف تاكسيا:

- ميدان الجيزة.

يقف بعيدا فتسير تجاهه مسرعة، ثم تركب في الخلف، تداهمها الموسيقى المميزة، والصوت المنغوم:

- نجووووووم إف إم.

تطلب من السائق أن يخفض الصوت قليلا، فيرد:

- أقل حاجة والله يا هانم.

تستسلم، وتنظر من الشباك.

آخر مرة رأت زوجها منذ شهرين يقف في إشارة ميدان الجيزة، تخشى أن تذهب الآن فلا تجده هناك.

قبلها كان يقف في إشارة تقاطع شارعي البطل أحمد عبد العزيز وجامعة الدول، ثم اختفى لمدة 6 أشهر، لم تعرف خلالها مكانه، حتى رأته صدفة في ميدان الجيزة.

تعبتْ من الجري وراءه في الإشارات، أصبحت له حياته المختلفة، بكت كثيرا لأجله، لكنها في النهاية تقول لنفسها: إنه حيّ، يأكل ويشرب، ويمكنها أن تذهب لرؤيته بين وقت وآخر. البهجة الحقيقية التي تراها في عينيه وهو ينظم المرور في الإشارات، لم تكن لديه وهو معها. تتأمل حالها وحاله، وتقول إنه ربما يكون سعيدا أكثر منها.

تنطلق أغنية محمد منير من الراديو بصوت مرتفع:

امبارح.. وأنا بعزوبتي سارح

بالشوق والهوى سارح

كان عمري عشرين

عشرين.

خالتها مريم توأمُ أمها، لو عاشتا حتى الآن لكان عمر كل منهما 65 عاما، ولو أنجبت خالتها مريم ولدا وتزوجته هي لاختلفت حياتها تماما، على الأقل لن تضطر لأن تركب هذا التاكسي في هذا الوقت المبكر،

وتسير به في هذا الاتجاه، نحو إشارة مرور ليس لها علاقة بها، لترى زوجها الذي هجرها ولم تفكر حتى في إقامة دعوى طلاق ضده.

وهي صغيرة أجلستها أمها في حضنها وقالت لها:

- يا فيروز.. أنت تشبهين خالتك مريم.

وحكت لها عن فتاة جميلة، كل الحوامل كن يطلن التأمل في ملامحها طمعًا في أن يلدن بناتٍ يشبهنها.

تعترض فيروز وتقول لأمها:

- لكنني لست جميلة بهذا الشكل.

تمرر الأم كفها على ظهر ابنتها:

- روحك تشبه روحها الخالق الناطق.

تسألها فيروز:

- أنتما توأم، هل تشبهينها؟

- يا ليت.

حملت الخالة مريم من خطيبها قبل أن تتزوج بشهرين، وماتت وهي تحاول إجهاض نفسها.

تحكي لها الأم كثيرا عن جمال خالتها، ودمها الخفيف، وروحها الحلوة، وعشقها لخطيبها، وتختم كلامها دائما وهي خائفة:

- قلبي يأكله الخوف عليك يا فيروز، انتبهي لنفسك.

ليس هناك صور فوتوغرافية للخالة مريم، لكن فيروز تمكنت من رسم صورة كاملة لها حين قالت أمها إنها كانت تشبه فاتن حمامة في فيلم أيامنا الحلوة.

تتذكر فيروز فاتن حمامة مع عبد الحليم حافظ في أكثر من مشهد، صورة فقط بلا صوت، وينبعث صوت محمد منير من راديو السيارة:

كان عمري عشرين..

عشرييييين.

تقترب السيارة من الإشارة، فتلمح زوجها على البعد، بقميص وبنطلون نظيفين، لكن مقاسهما أكبر منه، حافي القدمين، يمسك في يده بعصا قصيرة، ويضع في فمه صفارة، يقف في منتصف الشارع، يلوّح للسيارات بعصاه في نفس اتجاه سيرها، وحين تواصل السيارات السير في طريقها يفرح جدًّا، كأنه هو الذي يُحرِّكها، ويصفّر بين وقت وآخر.

تطلب من السائق أن يتوقف بجواره، وحين يرى زوجها التاكسي متوجها ناحيته بهدوء، يصفّر ويشير له بالتوقف.

يتوقف التاكسي فيفرح، ويشير له:

- رُخَصك.

تنزل فيروز، وينصرف التاكسي، وتمد فيروز يدها لزوجها وبها ورقة مطوية بمائة جنيه، يأخذها منها، وهو يحدّق في وجهها دون أن يعرفها، ويقول لها بأدب شديد:

- ميرسي.. ميرسي يا هانم.

يجري بسرعة، ويشير للسيارات بعصاه في حماس أشدّ أن تواصل طريقها، وهي تمر مسرعة من حوله.

يعلق أحد المارة:

- ربنا يشفي.

Puzzle

- 1 -

أؤمن بأن الله يختارنا لأشياء محددة سلفا، ربما لهذا اختارني لهذه السيارة، وهذه الشقة، وهذا الجسد، ربما أراد لي أن أشاهد هذا المشهد في هذا المسلسل الرديء، وأن تظهر بسنت فجأة تمهيدا للعودة، وأن أتشاجر مع جاري أمام العمارة لأنني أغلقت بسيارتي على سيارته، فأتأخر لمدة 10 دقائق، فأسرع في القيادة، حتى أصل إلى ميدان الجيزة، فتمر أمامي فيروز وهي تنظر نحو رجل مجنون يجري أمامها، فلا تراني أو أراها إلا في لحظة اصطدام سيارتي بجسدها، عيناها في عينيّ، في لحظة شديدة الطول، قبل أن يطير جسدها، والموبايل، وحقيبتها، بتصوير بطيء، ثم تعود سرعة الصورة إلى طبيعتها، وهي على الأرض غارقة في دمائها، والرجل يواصل جريه منها نحو اللاشيء.

أنزل من السيارة في حالة ذعر، يمر أمام عيني شريط سريع: دينا، كرمة، أبي، حفل زفافي، المشاجرة الأخيرة مع بسنت قبل أن نفترق، مكتبي في الجريدة، أمي وأبي اللذان ينتظراني مساءً لأوصلهما إلى المطار حتى يسافرا لأداء العُمرة، حذاء فيروز المسطح، حقيبتها الجلدية السوداء، شعرها المصبوغ بالأصفر، ملامحها الأربعينية الجميلة.

المـارة يحيطون بي متوقعين مني أن أراوغهـم وأهرب، وقد تقمّص كلٌّ منهم دور رجل شرطة محنك، يحققون معي، ويعدلون جسد فيروز ويسـكبون علـى وجههـا مياهـا من زجاجـات قـذرة، وفتاة تـرشّ عطرا رخيصـا على وجهها، وموبايلي يرنّ مكتوبا على شاشـته بسـنت محمد علـي، والمـارة يتجمعـون أكثر وأكثـر حول المـرأة الغارقة فـي دمائها، حولي وحول السـيارة، يفتشـون في حقيبتها ويخرجون بطاقتها، اسمها فيروز.

صوت سـارينة عربة الإسـعاف، وأمين شـرطة، واتصـالات متكررة علـى هاتفـي، زوجتـي، ثم أمـي، وأميـن الشـرطة يطلـب الرُّخَص على نغمـات الموبايل، بسـنت، ثـم الجريدة، ثم أمي، ثم بسـنت، التي رددت عليها فقالت:

- مرت ساعة.

- لن أستطيع المجيء يا بسنت.

أمين الشـرطة يسـحب مني الموبايل.. يُركبني سـيارتي في الكرسـي المجاور للسـائق ويقود هو، يسـير خلف عربة الإسـعاف التي اسـتعانت على الزحام بصوت سارينتها العالية.

مدّ أمين الشـرطة يده وسـحب سـيجارة من علبتي، وأشعلها، وشغّل الراديو على إذاعة القرآن الكريم:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

هل نحن مخيرون أم مسيرون؟ هل يختارنا الله لما قدره مسبقا؟ لهذا لم يجعلني حارس سجن فرنسي، لم يعرف في حياته الطويلة سوى حكايات المسجونين، يحفظ المئات منها عن ظهر قلب دون أن يعرف ماذا يفعل بها، كهذا الحارس الذي كتبت عنه على سبيل الترفيه في الجريدة، وحققت قصته أعلى نسبة قراءة على الموقع الإلكتروني، وتقاضيت عنها مكافأة تم تعليق ورقة بشأنها على لوحة المكافآت؟

يرسم الله صدفا وتقاطعاتٍ في حياتنا تشبه لعبة الـPuzzle ليخلق منها دراما تدفع الحياة إلى الاستمرار دون ملل. ماذا أفعل هنا، في هذه السيارة الغريبة التي علمتُ حين اشتريتها أن طيارا مصريا اشتراها في تركيا وعاش بها 5 سنوات هناك، ثم شحنها إلى مصر، وظل يفضلها على أسطول سياراته حتى مات مقتولا، باعها ورثته إلى تاجر سيارات نصب عليهم في أكثر من نصف ثمنها، قضى بها 6 أشهر ثم أرسل أحد صبيانه لعرضها للبيع في سوق سيارات مدينة نصر.

اشتريت الهوندا البريليود، وأحببتها، دون أن أدري أن كلّ هذا جزءٌ من خطة كبرى لكي أجلس الآن بجوار أمين شرطة صامت نستمع إلى سورة الذاريات وأمامنا سيارة إسعاف بها جثة امرأة أربعينية!

أعطاني عوني أمين الشرطة كما أخبرني باسمه فيما بعد موبايلي الذي ظل يرن بانتظام، فرددتُ على بسنت ودينا وأمي على التوالي وأخبرتهن بما جرى، محاولا طمأنتهنّ، ثم حاول عوني طمأنتي وهو يركن السيارة أمام المستشفى، بأنه حتى لو ماتت فيروز، فـ"ديتها قضية قتل خطأ، ربما

آخـذ فيها حكما مع إيقاف التنفيذ في حال صعبت على القاضي، ثم ختم كلامه وهو يسحب آخر نفس من السيجارة الثانية من علبتي:

- اللـه يشـفيها إذا كانـت حيـة.. ويرحمهـا إذا كانت قـد قابلت وجه كريم.

-2-

أنا الآن هنا، شاهد على كل ما حدث، ولا يمكنني أن أتنبأ بما سيحدث، أجلس في انتظار موت بطيء لامرأة لا أعرفها ولا تعرفني، ليس بيننا سوى نظرة لحظية، وموت، لا أسباب لمجيئه، ولا أسباب لتأخره.

أجلس في المستشـفى محبوسـا فـي غرفة ضيقة بها مكتب وكرسـي ورائحة دماء وأدوية نفاذة، تأتيني فكرة أنني لو نجوتُ من السجن سأسافر إلـى باريـس وألتقـي حارس السـجن العجوز لأسـمع منـه كلّ حكايات المساجين وأدوّنها في كتاب، بل ربما أكتبها رواية. قلت لنفسي إنها فكرة جيدة، ثم فكرت في أنني لو دخلت إلى السـجن الآن فربما أكتسب خبرة يمكنني كتابتها في سلسـلة تحقيقات صحفية عـن الحياة خلف القضبان أجمعها في كتاب في النهاية.

اتصلـت بالجريـدة، وبصديقي سـميح المحامي المنشـغل جدا هذه الأيـام بإنشـاء صفحات على فيس بـوك للدعوة لثـورة 25 يناير، أعطيت عوني الأمين مائة جنيه وطلبت منه أن يرسل من يشتري لنا سجائر وشايا مـن بوفيـه المستشـفى، ففرح ووضع النقـود في جيبه، أغلـق عليّ الباب بالمفتاح من الخارج، ثم طرقه بعد قليل ومعه علبة سجائر واحدة جذب

منها 10 سجائر فرط وضعها في علبته القديمة، ثم أعطاني العلبة الجديدة وبها السجائر العشرة المتبقية، ثم أتت عاملة بدينة تحمل صينية متسخة عليها كوبان بلاستيكيان بهما شاي ساخن، تنطلق منه الأبخرة.

خرج عوني يمزح مع العاملة البدينة، شربت الشاي وأنا أفكر أن الحياة ليست سوى رواية لا يمكن لها أن تكون ذات أهمية إلا بتعقيدات درامية مؤلمة.

يُطرق الباب ويدخل عوني الذي صار واقفا في صفي جدا ضد فيروز حين علم أنني صحفي، ظل يمازحني ويقول لي إنني يجب أن أبدو شجاعا، لأن السلطة الرابعة لا تخاف، وطلب مني أن أكتب في الجريدة عن معاناة أمناء الشرطة لأنّ أولاد الوسخة، ويشير إلى كتفه قاصدا الضباط، يفعلون كلّ الموبقات ولا يعملون ويحصلون على كل المزايا.

دخل عوني وغمز لي ثم دخلت خلفه بسنت، جميلة كعادتها بشعرها الطويل الأسود المموّج الذي يصل حتى مؤخرتها، مرتدية بنطلون جينز ضيقا وتي شيرت أبيضَ عليه كلمات متداخلة بالإنجليزية.

ظل عوني شاردا يتفحّص بسنت بإعجاب، وضبطتُ نفسي أفعل المثل، فأنا لم أرها منذ أكثر من عام ونصف العام، بعد أن ظللنا نلتقي يوميا تقريبا على مدار عامين.

زعقتُ في عوني فانتبه، طلبت منه أن يخرج فغمز لي وسحب الباب وخرج، انتبهت لبسنت فوجدتُ عينيها معلقتين بالدبلة في يدي:

- مبروك.

- هل هذا وقته؟ افتقدتك جدا.

قالت بدلالها القديم:

- غريبة.. لم أفتقدك.

- المرأة التي صدمتُها بالسيارة في العناية المركزة.

- هذا هو تفسير الحلم.

نظرت لي بسنت بحب، ثم بضيق، ثم ربّتت مؤخرة رأسي بحركة رجالية من حركاتها التي أحبها:

- لا تقلق سأزورك في السجن.

طُرق الباب مرة أخرى، دخل عوني كأنه السكرتير الخاص بي مصطحبا معه دينا هذه المرة.

نظرت دينا إلى بسنت من فوق لتحت، وتفحصتها بسنت باستكشاف مدعية اللامبالاة.

حاولتُ إنقاذ الموقف بتعريفهما لبعضهما البعض بأكبر قدر استطعته من الحيادية.

- بسنت.. زميلتي في الجرنال، في الحوادث.. دينا زوجتي.

هذه اللحظة المتوترة، في هذه الغرفة الكئيبة، في هذا المستشفى الحكومي البائس، ستكون نقطة فاصلة، ما بعدها لن يعود أبدا كما كان قبلها. ثلاثة أعوام كاملة ستمرّ قبل أن تعرف دينا طبيعة علاقتي ببسنت، وأنني كذبت عليها، وأن بسنت لم تعمل في الصحافة على الإطلاق. ثلاثة

أعوام ستهتز فيها مصر كلها، ولن يعود أي منا أبدا كما كان.. لا دينا، ولا بسنت، ولا أنا، ولا حتى فيروز التي أفاقت لتنهي الموقف المتوتر بين بسنت ودينا، وسمح لها الطبيب بالكلام، فأتى عوني طارقا الباب ومعه أمي وأخي هشام الذي لم يمكث معنا سوى نصف ساعة حتى يلحق بموعد عيادته، وعدد من زملاء الجريدة، واصطحبني إلى غرفة فيروز التي فتحت عينيها الجميلتين بتعب، ثم ابتسمت لي بطيبة زرعت طمأنينة في قلبي ما زلت أستشعرها إلى الآن كلما تذكرت ذلك اليوم.

أخبرنا الطبيب بأنهم اشتبهوا في ارتجاج أو نزيف في المخ، إلا أن الأمر كلّه انتهى إلى 4 غرز جراحية في مؤخرة رأسها.

فرضت فيروز حضورها الطاغي على الغرفة حين ابتسمت لعوني فبدا عليه الغباء وهي تنظر إليّ وتقول ببساطة:

- أنا التي كنت أسير وأنا شاردة.. أنا آسفة.

فوق بقايا المدينة

- 1 -

ستظل بسنت حلما لا يمكن لمسه، عصيًّا على التحقق، كأنها جزء من قلبي، انفصل خارجه، فلا أنا قادر على شق صدري وإسكانها بالداخل حتى أهدأ، ولا أنا أستطيع أن أبترها فأرتاح.

تعرفت على بسنت لأول مرة أمام المسرح الصغير بدار الأوبرا، كنت وقتها بصدد كتابة تحقيق صحفي عن عمالة دار الأوبرا: عمال البوفيه، والنظافة، والنجارين، والنقاشين.. وهل أثّر وجودهم في هذا الجو الفني على حياتهم أم لا.

ذهبت إلى مبنى دار الأوبرا ومعي يسري فوتوشوب مصور زميل، وأثناء حديثي مع أم عاطف التي كانت تمسح رخام مدخل المسرح، وكلامها عن موت زوجها، وحلمها بأن تصبح ابنتها مغنية مشهورة مثل أصالة وأنغام، فوجئت بفتاة جميلة تتشاجر مع يسري، وتصرّ على أنه التقط لها صورة أثناء عبورها.

عرّفت الفتاة بنفسي، وحاولت تهدئتها، لكنها كانت غاضبةً جدا، اتهمتني بأنني أدافع عن زميلي، وتشاجرت معي أيضا. أقسمتُ لها أن يسري شابّ مهذب، ولا يمكن أن يكون قد التقط لها أية صورة دون

إذنها، فأصرت على أن يفتح الصور، وأن أرى بنفسي، وسط رفض حاد من يسري.

ضغطت على يسري حتى فتح الصور، فوجدت صورة جميلة للفتاة، فابتسمتُ رغما عني، وشبّكت هي ذراعيها أمام صدرها علامة الانتصار. عذرتُ يسري في سري، فلقطة جميلة كهذه لا يمكن تفويتها، لكنني زعقت فيه وهدّدتُه بإبلاغ الجريدة، ووعدتها بأنه سيأخذ عقابه، أصرت هي على مسح الصورة أمام عينيها، فجعلته يمسحها واعتذرت لها. أعطيتها بطاقة عملي لتتصل بي إذا احتاجت أيّ شيء، لكنها رفضت أخذها ونظرت ليسري نظرة استياء ثم غادرتنا.

انتبهتُ في النهاية إلى وقوف أم عاطف معنا كل هذا الوقت، زعقتْ بعد أن انصرفت الفتاة بأنها مجرد عيّلة وممثلة مبتدئة في مركز الإبداع.

أنهينا حديثنا مع أم عاطف سريعا، وفي طريق العودة للجريدة طمأنتُ يسري بأنني لن أحكي ما حدث بشرط أن ينجح في استعادة الصورة المحذوفة بأي برنامج استرجاع صور، فوعدني بالمحاولة.

في اليوم التالي أتى لي يسري بالصورة نهارا.

ذهبت مساء إلى عرض مسرحية مركز الإبداع، رأيتها على المسرح، وعلمت أن اسمها بسنت، انتظرتُها بعد نهاية العرض، ودعوتها على فنجان قهوة، فزعقت في:

قهوة؟.. أنت بخيل؟.. أنا جائعة.

سرنا معا من الأوبرا حتى وسط البلد وأكلنا 4 ساندوتشات كبدة، أوصلتُها حتى البيت، وظللنا نلتقي يوميا وأمازحها بأغنية أم كلثوم: وإن مر يوم من غير رؤياك.

-2-

أمي في العمرة، ودينا عند أهلها ومعها كرمة، وأنا في الجريدة أوزّع مهام سريعة على المحررين لألحق بموعد بسنت.

لم نتفق على العودة بشكل واضح، لكننا بعد لقاء المستشفى أصبحنا نتصرف كأننا لم نفترق.

الساعة الثانية ظهرا، يوم 25 يناير 2011، شارع البطل أحمد عبد العزيز، تنتظرني بسنت في محل هارديز، دخلت جاريا لأنها لا تحب الانتظار، ولأن الوقت غير مناسب للتأخر:

- ما الأخبار يا حبيبتي؟

- يبدو أنه لا يوجد أي شيء.

صفحات الفيس بوك أعلنت الثانية ظهر اليوم موعدا لانطلاق الثورة، لكن هدوء الشارع بالخارج، وانتشار الأمن في كل مكان، لم يحملا لنا سوى الإحباط، وعلى تلفزيون المطعم مسئول أصلع يرغي ويزبد من فمه ويهز إبهامه في مواجهة الكاميرا:

- مصر ليست تونس.

طلبت بسنت كوبي مياه غازية جلسنا نشربهما متشابكي الأيدي.

لا مسمّى واضح لعلاقتنا الآن. قبل أن نفترق وأتزوج كنا حبيبين، أمامنا حياة كاملة يمكن أن نخوضها معا، لكن الأمور تعقدت كثيرا الآن، تركت بسنت بسبب مشاجرة عادية تحدث بين أي اثنين، لأعود لها وأنا زوج، وأب.

تمسك بيدي، وأنا أشعر بذنب أنها بقيت على العهد وانتظرتني كل هذه المدة، ثم عادت كأن شيئا لم يكن، ودون أية بارقة أمل في أي شيء، وأنني منذ اللحظة الأولى تخيلت أن علاقتنا انتهت للأبد وفكرت في إنشاء حياة أخرى.

كيف تفكر بسنت ويدها في يدي الآن؟ هل تنتظر مني أن أعرض عليها الزواج لتصبح زوجة ثانية؟ هل تتوقع أن أطلق دينا ونعود كما كنا؟.. وأنا كيف يجب أن أفكر؟ هل أفكر في مسئوليتي تجاه دينا؟ أم في حبي لبسنت؟ أم في كرمة التي أتيت بها إلى هذه المعادلة الفاسدة بسبب تفكيري المرتبك؟

هذه هي بسنت، كأنني معها سيزيف والحجر، كلّ منا يحتضن الآخر بحنو في رحلة صعود مراوغة دون أن نصل إلى نقطة سلام.

انشغلت بسنت بمتابعة الفيس بوك على تليفونها، حتى بدأت بشائر الهتافات تأتي من ناحية جامع مصطفى محمود بشارع جامعة الدول العربية:

عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية.

ارتمت بسنت في حضني بانفعال جارف، ثم أمسكت يدي بقوة وجذبتني نحو الخارج، ظلت تجري ممسكة بيدي وأنا خلفها حتى

انضممنا إلى المسيرة، كنا محض ساذجين، وكان الله ينظر من الأعلى ويعرف كل شيء.

سرنا مع السائرين، تقبض على كفي بقوة وخوف، تهتف وتستحثني لأرفع صوتي أكثر:

ارحل ارحل زي فاروق.

سافرت أمي إلى العمرة مع أبي في يوم الحادث، أوصلتهما إلى المطار، احتضنتني بقوة وهي تودعني، وقالت لي:

- أنا لست مرتاحة، أنت تخفي عني شيئا كبيرا.

هزّ لي أبي رأسه من خلف ظهرها، أشاح لي بيده وهو يبتسم بمعنى: لا تهتم، أنت تعرف أمك.

ودعتهما وظللت في السيارة داخل المطار، دون أن أدير المحرك، أفكر في أحداث اليوم الطويل، غفوت دون أن أشعر، حتى تنبهت على طرقات فوق زجاج السيارة، وأفقت على صوت مزعج لسيارة كنس الشارع، والعامل يطلب مني أن أتحرك قليلا لأفسح لها طريقا.

أدرت محرك السيارة وانطلقت إلى البيت.

فتحت باب البيت فوجدت دينا تجلس في الصالة بمفردها تبكي، تخيلت أنها شاهدت فيلما رومانسيا بكت في نهايته، أو حدث لها شيء، انحنيت عليها مسرعا، سألتها عن كرمة فقالت إنها بخير، سألتها عنها فقالت إنها ليست بخير، لأنني أهملها تماما، ولا أشعر بها، بكت طويلا

ولـم تنجـح محاولاتي في تهدئتهـا، فزعقت فيها منفعلا بـكل ما أحمله فـوق كتفي، طلبت منهـا أن تذهب إلى أبيها لترتـاح وتريحني، ودخلت لأنام.

استيقظت في اليوم التالي فلم أجد دينا وكرمة في الشقة، ووجدت ورقة تخبرني فيها أنها ذهبت غاضبة إلى شقة أبيها في مدينة السادس من أكتوبر.

ارتديـت ملابسـي علـى عجـل، وذهبـت إلـى المستشـفى ودفعـت تكاليـف عـلاج فيروز، رغم رفضهـا التام، ثم أوصلتها إلـى بيتها. دعتني إلى شـرب القهوة لديها، أعجبتني شـقتها رغم بسـاطتها، وشـعرت فيها براحة غريبة، وحين مزحتْ معي بالفرنسـية، أخبرتها بعزمي على السـفر إلى فرنسـا وجمع حكايات حارس السـجن العجوز في كتاب، قالت لي إنها بدأت منذ أعوام دراسـة اللغة الفرنسـية لكنها لم تكمل الكورسات، ثم قالت لي إن أحدا هنا لن يهتم بحكايات عجوز فرنسـي عن فرنسـيين، ضحكتُ وسـألتها عن توقعها ليوم 25 يناير فأشاحت بيدها، ثم قالت لي إننـي لو كنـت أريد حكايات لأكتبهـا، فإنه لا يوجد أفضـل من حكايتها، ضحكـتُ، لكنها لم تضحك، وقالت إنها جادة جـدا. أعطتني أكثر من 5 أرقـام موبايلات ورقم تليفون أرضي، قالت لي إنني عرفت العنوان، وإذا قررت أن أستمع لها فإنها مستعدة تماما لأن تحكي.

سـألتها عن صور فيروز الرحبانية الموزعة في المكان، وعن اسـمها، فقالت لي إن هذا جزء من الحكاية، سألتها من أين ستبدئين، قالت:

- من يوم أن التقينا.

شعبنا منك بقى مخنوق

سألتني بسنت بعد أن عدت من عند فيروز إذا كان هناك شيء قد حدث بيننا في شقتها، وحين أخبرتها أنها أكبر مني بحوالي 13 سنة، قالت بشكل مقتضب:

- وما المشكلة؟.. ميلفاية.

ضحكنا، وفجأة دمعت عيناها بتأثر.

- مالك يا حبيبتي؟

- هل ستتركني مرة أخرى؟

- مستحيل.

كنت أعرف في قرارة نفسي أن الوضع صعب، ومعقد، وأنني أكذب.

سرنا مع المتظاهرين حتى ميدان الدقي. اعترضتنا مجموعة من جنود الأمن المركزي. أغلقت الطريق. ثم فتحته تحت وطأة العدد والهتافات، تراص السكان في الشبابيك والبلكونات على الجانبين، ينظرون إلى المشهد المهيب، والهتافات تشتعل.

وصلنا إلى ميدان التحرير. اشتبك الأمن معنا، وأطلقوا علينا خراطيم المياه فتفرق الجمع ووقفنا أنا وبسنت مبتلين تماما في ركن غير ظاهر من الميدان. بدا التوتر الشديد على بسنت فسألتها:

- هل أنت بخير يا حبيبتي؟.. هل نرجع؟

همست في أذني بمشكلتها فنظرت حولي ونظرت لها وأدركت أنني في ورطة لا أحسد عليها.

هدوء لا يسبق أي عاصفة

-1-

استيقظت فيروز مفزوعة، نظرتْ في الساعة فوجدتها الرابعة، الستائر مسدلة والغرفة مظلمة فلم تدرك هل هي الرابعة عصرا، أم الرابعة فجرا.

سمعتْ صوت حركة خارج حجرة النوم، تذكرتْ أنها أغلقت باب الشقة جيدا قبل أن تنام، فكرت في تركيب شبابيك معدنية على نوافذ الحمام والمطبخ، حتى لا يمكن التسلل منهما.

صوت الحركة واضح جدا، تبعه صوت اصطدام، حتى تأكد في النهاية بصوت سقوط كوب الشاي الذي تركته أمام التلفزيون على الأرض وتحطمه.

مدت يدها إلى شعرها بحركة لا إرادية، صففته بأصابعها، وأمسكت الموبايل، طلبت رقما عشوائيا، فأتاها بعد فترة صوت امرأة نائمة، أغلقت واتصلت برقم آخر، أتاها صوت شاب:

- آلو.

- أنا آسفة.

- مَن؟

- حضرتك لا تعرفني.. أنا ساكنة بمفردي، وصحوت على صوت يأتي من الصالة، أنا خائفة، لا أعرف ماذا أفعل.

- من؟ هل تعرفينني؟

- لا.

- طيب وما شأني أنا.. اتصلي بالنجدة، 122.

أغلق X الخط، نهضت على أطراف أصابعها وخرجت، أضاءت نور الصالة، ففزع القط الذي وقف يرشف بقايا الشاي المنسكب على الأرض في تلذذ، ففزعت هي أكثر منه.

دخلت إلى المطبخ، أضاءت النور وفركت عينيها من آثار النوم، غسلت وجهها في الحوض وبه بعض الأطباق والأكواب المتسخة، ولم تجففه، خافت أن يعود القط مرة أخرى بعد أن طردته خارج الشقة بصعوبة، فتحت الفريزر، أخرجت كيس لبن، ووضعته على النار وخرجت.

أدارت أم كلثوم من اللاب توب، فانبعث صوتها عاليا:

أغدا ألقاك؟

تذكرت زوجها، خلعت ملابسها حتى تدخل إلى الحمام، ثم فتحت التلفزيون فوجدت بعض ما يجري في الميدان على بعض القنوات غير المصرية، كتمت الصوت.

تششششششش

سمعت صوت فوران اللبن آتيا من المطبخ، عضت شفتها السفلى وتحركت ببطء، أطفأت العين التي انطفأت شعلتها وبدأ الغاز في التسرب منها برائحته التي أحبتها وهي صغيرة.

جلست على ترابيزة الطعام بالمطبخ، مستمتعة باستنشاق رائحة الغاز المتبقية.

تحبّ روائح الغاز، ومزيل طلاء الأظافر، والغراء عند صهره لاستعماله في دهان الحوائط قديما، تجد متعة في تتبُّع هذه الروائح، واستنشاقها حتى امتلاء رئتيها، عاودتها متعة هذه الروائح نفسها وزوجها يجدد سيارته مع رائحة الدوكو، ظلت تذهب معه يوميا لمتابعة انتقال لون السيارة من الأحمر القديم إلى الأسود اللامع، وحين يطلب منها الصنايعي الابتعاد وقت رش السيارة حتى لا تؤذي ذرات الطلاء المتطايرة صدرها، لا تهتم بكلامه، وتقف حتى تغرق في الرائحة التي تفشل دائما في معرفة سبب حبها لها.

تنهض بتثاقل، تنظر إلى بحيرة اللبن على البوتاجاز، لها أكثر من أسبوع لم تنظفه، فار اللبن خلاله خمس أو ست مرات، تاركا في كل مرة بقعة بيضاء واسعة، وسطها الكثير من أعواد الكبريت، تشعلها وتشعل العين بها ثم تخاف على أصابعها من أن يطولها اللهب، فتلقي العود مشتعلا على البوتاجاز بخوف، وتقف لتراقبه في قلق، ولا تنصرف إلا حين ينطفئ.

تأخـذ حمامهـا، وتغني مـع أم كلثوم وهي تحت الـدش، تخرج مبتلة ولا تهتم بأن تجفف جسدها:

وغداً للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا

قد يكون الغيب حلواً.. إنما الحاضر أحلى

-2-

بسـنت تتأبط ذراعـي، نبحث عن صيدليـة مفتوحة فـي محيط ميدان التحرير حتى عثرنا على واحدة بصعوبة، تعجب الصيدلي فيها من منظرنا المبتل بالمياه وتهدّج أنفاسنا من الجري ثم من طلبنا.

أعطانا الفوط الصحية في كيس أسـود، لأنه لا يصح أن نسـير بها في الشـارع مكشـوفة، حاسـبته وأعطاني بالباقـي أكياس فـوار فواكه لعلاج الحموضة والانتفاخ.

داهمتنا مشـكلة المكان، بحثنـا عن المطاعم فـي المحيط، وجدناها كلها مغلقة، حتى قابلت زميلة تعمل في جريدة أخرى ومحطة تلفزيونية، سـلمتُ عليهـا، ظلـت تتكلم بلهجـة حماسـية مبالغ فيها عـن مصر التي سـتتغير، وعن التاريخ الذي نكتبه الآن، وعن الدَّين الكبير الذي ستحمله لنـا الأجيـال القادمـة، لكنني قاطعتها بحسـم وسـألتها عن حمـام يمكن لبسنت أن تدخله، فقالت ببساطة:

- عند شنواني.

سارت معنا وهي مازالت تثرثر حول عظمة الثورة التي لم تظهر لها أي كرامات بعد، لدرجة أنني تمنيت أن تفشل هذه الثورة نكاية فيها فقط.

دخلنا عمارة ضخمة في قلب ميدان التحرير، ركبنا مصعدها العتيق فصعد بنا حتى الطابق الأخير من العمارة، صافحْنا رجلا لم يهتم بنا أسمته الزميلة الشنواني.

الشقة مزدحمة جدا وبها عدد من الكاميرات التلفزيونية والأطقم المصاحبة لها، لمحت من الداخل منظر الميدان مفتوحا أمام شبابيك وبلكونات الشقة، لكن تعجّل بسنت دفعني لإدخالها إلى الحمام، ظللتُ واقفا أمام بابه لأنها لا تحب أن أتحرك من أمام أي حمام في مكان غريب مادامت هي بالداخل، انشغلتُ بمتابعة المصوّرين والفنيين وهم ينصبون الكاميرات في الشبابيك والبلكونات لتصوير الحدث الذي يجري للمرة الأولى في مصر.

أتت الزميلة ووقفت بجواري وهمست لي أن الشنواني يؤجّر البلكونات والشبابيك بالساعة، وليس لوجه الله، ثم مالت على أذني وهمست لي بأنه:

- شاذ أعوذ بالله.. خلّ بالك من نفسك.

خرجت بسنت وفم الزميلة في أذني فنظرتْ لها باستغراب، ثم دخلنا أنا وبسنت ونظرنا للميدان من أعلى، دار شاب يوزع أكوابا بها شاي ساخن على الفنيين، أعطانا كوبين، وقفنا صامتين أمام المنظر المهيب حتى انتهى الكوبان، وضعناهما في الصينية ثم نزلنا.

سألتني بسنت في الأسانسير عن السر الذي همست به الزميلة في أذني، فأخبرتها، فضحكت، وقالت أنا جائعة.

نزلنا وأكلنا، جلسنا في الميدان على الأرض مع الجالسين، وقفت بسنت في وسط حلقة كبيرة تغني لهم أغاني الشيخ إمام وسيد درويش بصوتها الجميل، حتى تجمهر الناس حولنا وأخرجوا موبايلاتهم وصوروها، بعد أن انتهت وضعت ذراعها على كتفي ونحن جالسان، قالت لي إنها تشعر بسلام وهدوء لم يمرا في حياتها من قبل.

بعد منتصف الليل هاجمت القوات المعتصمين بالميدان، جرينا أنا وبسنت مع أمواج المبتعدين عن الميدان، حتى تجمّعنا في شارع جانبي، اختلفت الآراء حول وجهة المسيرة، ثم استقروا في النهاية على السير نحو شارع شبرا، للانضمام إلى المعتصمين هناك، لم يدرك أحد أن الاقتراح خرج من أفراد أمن مندسين وسط التجمع، وأنه كان كمينا لحصر المتظاهرين في نفق شبرا.

وصلنا إلى النفق، وبعد أن دخلته المسيرة حاصرها جنود الأمن المركزي من الجانبين في حركة كماشة، تكالب عليّ أنا وبسنت خمسة جنود ظلوا يضربوننا بالهراوات وأنا أحتضنها مغطيا جسدها كله بجسدي متلقيا الضربات على ظهري ورأسي، حتى أتى ضابط شاب خلصنا منهم وأشار لنا نحو ممر آمن للخروج.

خرجنا من النفق وظللنا نسير في شوارع وحوارٍ متتابعة حتى وجدنا نصبة شاي صغيرة أمامها 4 كراسٍ، جلسنا وظللنا نضحك، وصاحب النصبة ينظر لنا باستغراب، حتى زعق فينا.

- قوموا من هنا.. شطبنا.

ظللنا نضحك، رنّ الموبايل، وكانت دينا على الخط، سألتني:

- نزلت المظاهرات؟

قلت لها إنني سأبيت في الجريدة لتغطية الأحداث ولم أنزل. سألتها عن كرمة فأغلقت الخط. لمحت ضيقا في عين بسنت. فطلبت منها أن تتصل بأمها وتخبرها أن الطرق مغلقة وأنها لا يمكن أن ترجع إلى البيت. وأنها ستبيت لدى مها صاحبتها. ففعلت. ثم اتصلت بسنت بمها ونبهتها إذا اتصلت أمها أن تقول لها إنها لديها ولكنها نائمة.

جاءني اتصال من رقم خارج مصر. رددتُ فكانت أمي على الخط. قالت إنها تعرف أنني نزلت المظاهرات. وإنها لن تمنعني. طلبت مني أن أحافظ على نفسي وأن أطمئن على أخي الأصغر هشام رغم أنها تعرف أنه لا يهتم بمثل هذه الأشياء. أعطت التليفون لأبي فزعق فيّ وقال لي لا تسمع كلام أمك وابتعد عن المظاهرات. فضحكت منهما وهما يتشاجران، ثم أغلقنا الخط.

أغلقت بسنت هي الأخرى تليفونها. وضعت ذراعها في ذراعي وهي تغني نفس الأغنية التي كانت تغنيها في الميدان. ثم لكزتني في جنبي لكي أغني معها، فسرنا في الشارع الخالي نغني ونتمايل:

وكل يوم فى حبك

تزيد الممنوعات

وكل يوم بحبك

أكتر من اللى فات.

روايات رومانسية تفسد أخلاق البنات

- 1 -

كثيرًا ما بكت فيروز وهي تتذكر وفاة خالتها مريم، ولم تسمح لأي واحد من خطابها الستة أن يلمس طرف ثوبها.

حين تتذكر ملامح نفسها بعيدا عن المرآة، يتداخل لديها شكلها مع ملامح خالتها مريم وملامح فيروز الصغيرة، فظلت صورتها لدى نفسها مزيجا من الصور الثلاث.

تتخيل فيروز خالتها مريم، فتتداخل ألوان كثيرة جميلة، تقف خالتها وسطها مبتسمة، أقرب ما تكون إلى العذراء في صورها الشهيرة، دون وشاح العذراء الأزرق.

في مراهقتها حرمها أبوها من المصروف بسبب إدمانها لقراءة الروايات الرومانسية. وذات يوم انتظرها حتى عادت من المدرسة، وقبل أن تبدّل ملابسها أمسكها من ذراعها، وبيده الأخرى أمسك حقيبة سوداء كبيرة. لم تفهم شيئا وهو يقول إن هذه الروايات تفسد أخلاق البنات، نزل بها السلم ممسكا بذراعها، حتى وقف في وسط الشارع وأخرج من الحقيبة زجاجة بنزين، ثم قلب الحقيبة إلى أسفل، فسقطت منها رواياتها، فتح الزجاجة وسكب البنزين فوق الكتب، وأشعل النار فيها،

تصاعدت ألسنة اللهب الزرقاء، ورأتها تنعكس في عينيه، كانتا شديدتي الزرقة وجاحظتين.

صعدت مسرعة وراقبت اشتعال كتبها حتى النهاية من النافذة، ظل واقفًا، ثم ظل يركل الرماد بقدميه حتى اتسخ بنطلونه تمامًا.

كل لون لديها يعني شخصًا ما.

الأزرق: أباها، يبدو صافيًا وغامضا لكنه يتغير في لحظة.

الأسود: أمها، جميل وأنيق ودافئ لكن حزين وقاتم.

الأحمر: زوجها، كثيرا ما يجرح نفسه ويسيل منه دمه، فلا يبالي، كأن الطبيعي هو أن يجري خارجه.

الأخضر: جدتها توحيدة، لم ترها إلا مرة واحدة، سافرت مع أمها إلى البلد، فرأتها لأول مرة في الحقل فارتبط بها الأخضر.

الأبيض: ابنتها، فرحت ببياض بشرتها الناصع حين ولدتها، فرحت أكثر حين اكتشفت أن عينيها لم تأخذا لون عيني جدها الزرقاوين.

لم تكره أباها لكن أبغضت لون عينيه، وابتعاده عنها، ومزاجه الذي يتغير في لحظة. وأحبت اختياره لاسمها: فيروز. وحين علّمها الرسم أحبت كل الألوان ما عدا الأزرق، لم تستخدمه في رسوماتها إطلاقا.

اتفق أبوها وأمها على أن يكون اسمها نورا، رفض الأب أن يذهب مع زوجته إلى المستشفى، متحجّجًا بأنه يكره رائحة المستشفيات، حتى يجلس في البيت ليتفرج على التلفزيون الذي جاءهم قبلها بيوم واحد

بعد فترة حجز طويلة، انبهر به وقتها وتفرّغ له، لا يقوم من أمامه إلا إلى الحمام، وظل مدمنا له حتى مات.

أرسل زوجته مع إحدى جاراتها إلى المستشفى للولادة وجلس هو في المنزل يشاهد فيلم ياسمين، مستمتعًا بأغنية فيروز الصغيرة:

معانا ريال..

معانا ريال

استغل وجوده في المنزل منفردًا ورقص معها، حتى رن جرس التليفون، طمأنته حماته، فقال لها:

- سنسميها فيروز.

وأغلق التليفون وهو يغني:

يللا نجيب لحمة وخضار

يللا نجيب عربية بكار

- 2 -

حين أتمت فيروز عامها الخامس، ذهبت بها أمها إلى الكوافير ومعها صورة لفيروز الصغيرة قصتها من إحدى المجلات، طلبت من الحلاق أن يقص شعرها ويصففه لها بنفس الطريقة.

ألبستها فستانا أبيض قصيرًا ووضعت لها أحمر شفايف، حتى أصبحت صورة طبق الأصل من فيروز مع اختلاف الملامح، نزلت معها وأوقفت تاكسيا وقالت للسائق:

[illegible]

- استوديو مصر.

أدخلوهم بصعوبة، وقفت الأم أمام يوسف شاهين دون أن تعرفه، وقالت له:

- أريد أن تمثل ابنتي.

سألها:

- ما اسمك يا حلوة؟

ردت الأم:

- اسمها فيروز.

أعطاهما موعدًا آخر، وطلب منها ألا تتأخرا.

اعترض الأب حين وجد أن الموضوع دخل في الجد، لكن الأم أقنعته أنها صفقة.

صففت لها شعرها بنفس الطريقة للمرة الثانية واشترت لها فستانا جديدًا، وذهبت بها إلى الاستوديو. طلبوا من الأم أن تنتظر بعيدًا، وأخذوا البنت، مسحوا الزينة من على وجهها وألبسوها جلبابًا قديمًا أكبر منها فكان يجرجر على الأرض، مازالت تذكر رائحته حتى الآن، دخل عليها محمود المليجي وكانت تشاهده في التلفزيون، أعطى كل واحد من الأطفال قطعة حلوى وربت رأسها التي غطوها بإيشارب أسود.

حين وقفت البنت أمام الكاميرا في خلفية مشهد من فيلم الأرض وسط مجموعة كبيرة من الأطفال، كانت الأم تبحث عنها من خلف

الكاميرا حتى رأتها، فصعقت عندما رأت منظرها، وبعد انتهاء المشهد أخذتها إلى البيت ولم ترجع بها مرة أخرى.

أحبت هي فيما بعد شخصية فيروز الصغيرة، حفظت كل أغانيها ورقصاتها، وكانت تقلدها أمام الضيوف فيضحكون.

حين دخلت الجامعة راودها حلم التمثيل مرة أخرى، كان أبوها قد مات وهي في نهاية الثانوية، ودخلت أمها المستشفى لتعالَج من السرطان، اشتركت في أسرة المسرح، وأخبرت أمها ففرحت، وقالت:

- من زمان وأنا أعرف أنك ستصبحين مشهورة.

مثلت في مسرح الجامعة مسرحية ألفها وأخرجها طالب كانت تحبه، أعطاها دورا صغيرا لا يتجاوز خمس دقائق متفرقة على الخشبة.

أصرت الأم في يوم العرض أن تغادر المستشفى وتذهب لمشاهدتها، بكت منذ بداية العرض، وصرخت في المرات التي ظهرت فيها ابنتها على الخشبة، وبعد العرض جرت إلى فيروز واحتضنتها وقالت لها:

- أنا فخورة بك.

ماتت الأم بعدها بأسبوعين، وتركت فيروز التمثيل إلى الأبد.

- 3 -

زمن طويل مرّ منذ شاهدتْ فيروز فيلما لـ "فيروز" آخر مرة، كانت تحتفظ بأفلامها على هارد ديسك جهاز الكمبيوتر الـIPM قبل أن تحترق ذاكرته بكل ما فيها، لم تنج سوى الأشياء التي كانت تحتفظ بها على

اسطوانات، نقلتها كلها على اللاب توب، قررت شراءه حتى تتحرك به في الشقة براحتها.

نفس هاجس اسمها هو الذي دفعها إلى سماع فيروز الرحباني، كل علاقتها بها نشأت حين لمحت في الميادين إعلانًا عن ألبومها مش هايك هيك يكون اشترته وسمعته، بدأت علاقتها بها بالمقلوب، سمعت أغنياتها من الآخر إلى الأول زمنيا، وفي الليالي الشتائية الطويلة، تغلق كل أنوار الشقة وتجلس في الصالة وأمامها اللاب توب، تشغل فيروز":

ليالي الشمال الحزينة..

ضلي اذكريني اذكريني.

بنفس الطريقة أدمنت شرب فيروز.. كمثرى وأناناس وتفاح وخوخ، التطور الطبيعي للحاجة الساقعة، شراب شعير خالي من الكحول.

هي فيروز، وفيروز هي ممثلتها المفضلة، ومطربتها المفضلة، ومشروبها المفضل، وحجرها الكريم المفضل، حتى أنها كانت تفرح كثيرًا حين يغني لها زوجها في الليالي الحميمة: رايحين على أرض الفيروز.

- 4 -

قررت أن تبدأ رحلة البحث عن أفلام فيروز الصغيرة، لم تجدها كاملة على الإنترنت، سألت في صوت القاهرة، فقالوا لها إنها ليست موجودة وإنها في الغالب غير موجودة إلا في أرشيف التلفزيون، وحين حاولت الوصول لأرشيف التليفزيون قال لها أحد الصحفيين إنها في الغالب لن

تجدها أو لن تجدها كاملة، لأن معظم الأفلام التي كان التلفزيون يملكها باعها لقناة art الفضائية.

فكرت أين يمكنها أن تجد المجموعة كاملة، ثم بشست لفترة، حتى اكتشفت أنه لايوجد إلا شخص واحد في العالم يهتم بأن يحتفظ بالمجموعة كاملة لأفلام فيروز الصغيرة وهي فيروز الصغيرة نفسها، حاولت أكثر من مرة أن تعثر على من يوصلها به، حتى عرفه زوجها ذات مرة على مخرج كبير بالتلفزيون وعدها أن يذهب معها لزيارة فيروز الصغيرة في شقتها، لكنه توفي قبل الموعد بيومين.

- ٥ -

من مواليد 1943، لقبت باسم شيرلى تمبل المصرية.

اسمها الحقيقى بيروز أرتين كالفيان، غير أنور وجدى حرف الباء إلى فاء ليصبح فيروز، تنتمي إلى أسرة أرمينية ولها العديد من الإخوة والأخوات منهم الفنانة نيللي.

اكتشفها الفنان اللبنانى إلياس مؤدب، كان صديقا لأبيها يقضي معه أمسيات فنية بالبيت، يعزف الكمان، وكانت فيروز ترقص على الموسيقى، مما جعله يلاحظ موهبتها ويحاول تطويرها، فألف ولحن لها مونولوجا لتغنيه في مسابقة مواهب فى ملهى الأوبرج الليلي، وبالمصادفة حضر الملك فاروق الحفل، أدت المونولوج وقوبل الأداء بالتصفيق الحاد، فمنحها الملك أول مكافأة فى حياتها: 50 جنيها.

مدينة الملاهي

- 1 -

انشغلتُ جدا في الجريدة، بدءا من يوم 25 يناير.

ألقوا عليّ عبء مراجعة المتابعات الميدانية، وفلترة كلام المصادر، أصبح يومي منقسما بين تحرير الجريدة التي تقسم للقارئ بأغلظ الأيمان أنه لا توجد أي ثورة وبين التحركات البسيطة التي أنزل إليها في نهاية اليوم مع بسنت، نهتف قليلا، ونأكل، ونشرب شايا وقهوة وشايا بالحليب على المقهى، والجو لا يوحي إلا بالهدوء الذي يسبق حدثا ضخما.

لمدة 3 أيام أصبحت حياتي هي الجريدة وبسنت، كنا نبيت معا، في الشارع أو في سيارتي، أو في مطعم مفتوح 24 ساعة.. رجعت إلى البيت ليلة 28 يناير، لأجد أن دينا قد عادت إلى البيت، وأنها صالحتني بينها وبين نفسها كما فعلت أم كلثوم في أغنيتها الشهيرة، لكنها لم تحنق عليّ مرة أخرى، أخذتني في حضنها بقوة وقالت لي إنها كانت خائفة علي، وألحت عليّ أن أبتعد عن النزول في المظاهرات، دفعتني إلى اللعب مع كرمة التي افتقدتها حقا، حتى تشعرني بمسئوليتي كأبٍ حديث، لا ينبغي له أن يترك مسئوليته، أو ابنتيه كما قالت، وأن يضيع نفسه.

في الصباح وجدت دينا ترتدي بيجامة بيت جديدة جميلة، حضّرتْ الفطور بشكل جمالي ذكرني بأيام شهر العسل، أفطرتُ قبل أن أستحم، ثم استحممت وارتديت ملابسي، قبلت دينا واتفقت معها أن تأخذ البنت وتذهب للإقامة لدى والدها لأن البلد في حالة قلق، ولأنني لن أكون متواجدا في البيت معظم الوقت بسبب العمل، والجو لا يوحي بالأمان، وأنني سأطمئن عليهما أكثر مع أسرتها.

أوصلت دينا إلى والدها في التاسعة من صباح 28 يناير، ثم توجهت إلى بسنت، أخذتها من أمام بيتها وتوجهنا قبل صلاة الجمعة إلى شارع جامعة الدول العربية، ركنت السيارة في شارع جانبي بالقرب من ميدان سفنكس، وتمشينا حتى ميدان مصطفى محمود، وقفنا نراقب المصلين دون أن نصلي، وبعد الجمعة انطلقنا مع المسيرة.

مناوشات عنيفة للمتظاهرين مع الأمن على طول الطريق حتى وصلنا إلى باب دار الأوبرا الرئيسي، حافظنا خلالها على سلامتنا بصعوبة، تعبت بسنت تماما من منظر الدماء والاشتباكات، فجلسنا على الرصيف، دون أن ننتبه إلى أن جلستنا جاءت إلى جانب سيارة إسعاف، وأن المشهد الذي سنراه سيظل محفورا في عقولنا إلى ما لا نهاية.

جثث، جثث، جثث، ودماء تغرق الطريق أمام الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، كل قليل يخرج مجموعة شباب من وسط زحام كوبري قصر النيل حاملين شابا غارقا في دمائه، يسلمونه لسيارة الإسعاف التي أصبحت تكوّم القتلى والجرحى فوق بعضهم البعض داخل صندوقها دون تمييز، حتى أصبحت أشبه بمقبرة جماعية متحركة.

استندت بسنت على ذراعي ونهضت، وقفت بجوار سور وأفرغت ما في بطنها أكثر من مرة، وأصيبت بإعياء شديد، انخرطت في بكاء هيستيري لمدة نصف ساعة كاملة، ثم طلبت مني أن أرجعها إلى بيتها.

رحلة شاقة جدا كانت أمامنا، حتى يمكننا العودة إلى بيت بسنت وسط هذه الأجواء، سرنا للخلف نحو ميدان الدقي، ثم أشرنا لسيارة ملاكي نقلتنا شارعين، ثم سرنا طويلا، ركبنا سيارة أجرة بدا سائقها العجوز أشبه بأسد حبيس مرتبك وضائع بين الشوارع المغلقة، ظلّ يقسم أنه لو كان يدرك أن اليوم سيكون بهذا الشكل لما نزل من بيته، لكن التلفزيون الرسمي الذي يشاهده لم يشر من قريب أو بعيد إلى أي مشاكل في الشوارع، رغم تأكيدات زوجته وأولاده له، ومطالبتهم له بعدم النزول.

ودّعتُ بسنت أمام باب شقتها غير مبال باحتمالات أن يرانا أهلها أو الجيران ونزلت، عدت إلى كوبري قصر النيل وسط معمعة قتل الشرطة للمتظاهرين بالرصاص ودهسهم بالمدرعات، شعرت بوحدة مؤلمة وسط كل هذا الحشد، قابلت زميلا كان يشتم في الثورة المزعومة على فيس بوك قبل 25 يناير، وهو يقف محتميا بأحد الأركان، يتفرج أكثر من كونه يشارك، نظر لي في خجل، ثم تاه وسط الزحام، سأقابله كثيرا بعدها وهو يحاول التسلق للوصول إلى كل من يركب السلطة، ينجح أحيانا ويخفق أحيانا، حتى تمكّن في خلال سنوات قليلة من امتلاك فيلا وسيارة وتزوّج زيجة ثانية، بعد أن كان يسكن في شقة بالإيجار في إحدى المناطق الشعبية.

انتهى يوم 28 يناير بالنسبة لي بهزيمة الشرطة، ونزول الجيش، وإن كان شيء ما بداخلي لم يشعر بالراحة. ذهبت إلى البيت وأخذت دشا ساخنا وأكلت بواقي طعام الأمس ونمت، استيقظت في عمق الليل على عمليات السطو والنهب المنظمة لكل محلات وفنادق شارع الهرم.

انتهى اليوم، وامتلأ ميدان التحرير بمن قرروا المبيت والاعتصام، ملايين في الميدان، وملايين في البيوت، وانتشرت الفوضى الأمنية في الشوارع، وبدأت اللجان الشعبية في فرض سيطرتها على البلد.

قابلت بسنت في الصباح، كانت حالتها مزرية من مشهد جثث الأمس، أمسكت بيدها فوجدتها ترتعد، شربنا قهوة عند بائع عجوز بالقرب من ميدان الجيزة، قلت لها هيا نذهب إلى الميدان، فرفضت، أعدتها إلى بيتها، وذهبت زائرا بمفردي عدة مرات، مرت الثمانية عشر يوما، وتنحى مبارك، ودخل البلد بعدها مدينة ملاهٍ كبرى.

– 2 –

عادت أمي من العمرة التي ظلت تتمناها لسنوات، تأخرت مرة بسبب زواجي، ومرة بسبب إنجاب كرمة، تستغفر الله وتقول:

ليتني لم أذهب.

خافت من الطائرة التي تركبها لأول مرة في حياتها، ظلت قلقة طوال الوقت بسبب الأحداث، وقضت معظم المدة بجوار الكعبة تدعو الله لي ولإخوتي ولمصر.

مزحت معها قائلا إن دعوتها غير مستجابة، فلا أنا ولا إخوتي ولا مصر في أفضل حال، قلت لها إن العمرة طلعت مضروبة، فضربتني على كتفي وهي تضحك، أعطتني هدايا السعودية الشهيرة، الجلابيب البيضاء، والمسابح، والبخور، والعطور- وسجاجيد الصلاة، وعبايات حريمي لدينا، وملابس جميلة لكرمة.

وبخت أمي أخي لأنه لم ينزل إلى المظاهرات، لكنها وصلت في النهاية إلى أن العملية محصلة بعضها، وأنه مفيش فايدة.

طهت لنا الكثير من الطعام بحجة أنها غابت عنا كثيرا، أكلنا وشربنا، حاولتُ التعلل بالعمل من أجل النزول، فأقسمتْ أن أبقى، وقالت إنها لم تكمل حكاية ما حدث، حتى حكى أبي أنهما فقدا بعضهما بجانب الكعبة، وأنه ظل لمدة 48 ساعة يبحث عنها، في الطريق والفندق والحرم، لأنها نسيت اسم الفندق فلم تتمكن من العودة.

ضحكت أمي، قالت إنها قابلته بعد انتهاء اليومين وهو يطوف بالكعبة ويبكي ويرفع يديه للسماء داعيا الله أن يردها إليه، وحين رآها أمامه لم يصدق نفسه، ارتمى في حضنها أمام مجموعة من المعتمرين الآسيويين، ثم نزل على الأرض ليسجد شكرا لله على أنه وجدها، ثم في طريق العودة إلى الفندق تشاجرا، كما يفعلان دائما.

أخذتني أمي جانبا، سألتني عن دينا، ولماذا تبدو حزينة، وقالت إنه من الواضح أنني السبب، حاولت أن أقسم لها، فأسكتتني وسألتني:

- هل توجد أخرى؟

أقسمتُ لها كاذبا بأنه لا توجد، فقالت لي إنني سأدخل النار، ثم عقّبت أن دينا هي هديتها لي، وهي التي اختارتها، وأي ألم سيصيب دينا بسببي سيحاسبها الله هي عليه.

حاولتُ طمأنتها، وأنا أتساءل عمن يطمئنني، وددت لو عدت بالزمن 25 عاما لأرتمي في حضنها كما كنت أفعل في سنوات الدراسة الأولى لأخبرها أن الحياة خارج البيت صعبة، ومخيفة، ولا يمكن التعامل معها.

تخيلت للحظة أنني أقطع الاجتماع العائلي لأقف وسطهم: أبي، وأمي، وأخي هشام، وأختاي هند وسلمى وزوجاهما، ودينا، وكرمة، لأخبرهم أنني أحب بسنت، وأن القلب له أحكام لا يدركها العقل، وأنني سأتزوج بسنت زوجة ثانية.

أفاقتني أمي من شرودي لتخبرني كأنها تقرأ ما يدور بداخلي:

- اليوم الذي ستهدم فيه بيتك، لن تكون ابني فيه.

أرقام عشوائية

- 1 -

مرت خمس سنوات منذ تأكدت فيروز من أن زوجها هجرها بلا رجعة، كما هجر أية حياة يعرفها البشر العاديون.

خرج من البيت بملابس النوم ورفض أن يرد عليها حين حاولت رده إلى الداخل، بدت عليه منذ فترة علامات مرض نفسي مسيطر، لم تفلح معه وصفات الأطباء، اضطرت إلى حبسه في البيت، لكنه نجح في مغافلتها وهرب أثناء فتحها باب الشقة لأحد عمال التوصيل.

أبلغت الشرطة والمعارف والأقارب، حتى أتاها نبأ تشرده في إشارات المرور.

يئست من محاولات إرجاعه إلى البيت، أرسلت لابنتها مريم في الخارج تستشيرها، فلم تبد البنت اهتماما كبيرا، بعد أن تركت مصر بمجرد إنهاء دراستها الثانوية لتلتحق بالجامعة في الخارج.

حزنت فيروز، ثم أقلمت حياتها على أنه غير موجود، وأنها تعيش بمفردها.

- 2 -

لم تهتم فيروز أبدا بما كان يحدث أثناء الثورة، كانت تحيا معركة أخرى داخل صدرها، لا أحد يدري عنها شيئا، أقلقتها قليلا الحركة المريبة في الشوارع، ومضايقات مراهقي اللجان الشعبية لها وهي تسير باحثة عن محل موبايلات لتشتري خط موبايل جديدا.

قررت عدم الاحتفاظ برقمها القديم الذي كانت تجري منه مكالماتها العشوائية، أصبحت تتلقى عليه معاكسات كثيرة من رجال من كل الأعمار يظنون أنها امرأة سهلة، أو واحدة من هواة السكس فون، مع المكالمة الأخيرة أصابتها نوبة غضب جعلتها تلقي الهاتف بقوة فتدمر تماما، اختارت محلا كتب على بابه الزجاجي: أرقام مميزة، ودخلت، وجدت كل الأرقام معقدة، فاختارت أسهل الأرقام التي عرضها البائع عليها، أعطته صورة بطاقتها، ومنحته التي شيرت الهدية الذي تغري الشركة به المشتركين لاختيارها، قالت له:

- لن أستعمله.

نظر إليها البائع بلامبالاة، وألقى التي شيرت فوق كومة أخرى خلف ظهره، وانشغل عنها بمراقبة شجار بين شاب وفتاة بالقرب من باب محله. شكرته، وتناولت الخط ومضت.

وقفتْ أمام محل عصير قصب، شعرت بعطش، بحثت في جيبها عن فكة فلم تجد، تذكرت أن الشاب كان قصيرا بشكل ملحوظ، وأن الفتاة كانت نحيفة، وأنهما كانا يتشاجران بسبب نقود، واصلت طريقها،

تعثرت في طفل صغير، واصطدمت يدها في عربة خشبية فآلمتها، تخيلت للحظة أن هاتفها يرن، ثم تذكرت أن هاتفها لم يعد صالحا للاستعمال، نظرت إلى الخط في يدها، ودخلت أول سوبر ماركت، اشترت خمس علب سجائر لايت، ونصف كيلو جبن رومي، وعلبتي فيروز تفاح، وكيس سويت، ومزيل عرق فا، وبكرتي كلينكس، وحجرين لريموت التلفزيون، وضعت كل الأشياء في شنطة واحدة، وحملتها في يدها اليمنى، تاركة الخط الجديد وحده في يدها اليسرى.

تفضل أن تخرج دائما ببنطلون ضيق، لكن زيادة وزنها في الشهور الأخيرة أجبرتها على أن ترتدي جيب واسعة هذه المرة، شعرت بضيق من احتكاك فخذيها، قررت أن تشعل سيجارة وأن تشربها في الطريق دون اهتمام بنظرات المارة، لكنها مرت بلجنة شعبية أخرى عبارة عن 6 شباب يمسكون بكلبين وعصا بيسبول وسيف يشبه أسلحة الأفلام التاريخية، فلم تفعل، نظرت في الرقم الجديد أكثر من مرة حتى تحفظه، ففشلت.

- 3 -

أخرجت فيروز عدة الموبايل القديمة من الدولاب، قربتها من أنفها فشمت فيها رائحة عطر كاسيليا الذي توقفت عن استعماله منذ سنوات، أهداها زوجها هذا الموبايل في عيد زواجهما العشرين، كانت قد نسيت موعده، فاستطاع هذه المرة أن يفاجئها مفاجأة حقيقية، بحفل كامل وتورتة من طابقين، مزروع في قمتها عروسان.

كانت المرة الأولى التي تستعمل فيها اختراع الموبايل، احتاجت إلى فترة حتى عرفت كيف تتعامل معه، ظلت خلالها تفقد رصيدها عن طريق إرسال رسائل خالية أو الاتصال بأي رقم دون قصد.

وضعت الخط الجديد في العدة القديمة، وضغطت زر التشغيل، فلم يحدث شيء، أعادت فتح الموبايل وإغلاقه، وتركيب البطارية والشريحة بأكثر من طريقة بلا جدوى، وضعت الموبايل في الشاحن، وجلست بجواره حتى كتب على الشاشة: تم الشحن، وأعادت وضع الخط فلم يحدث شيء.

لم تكن تريد أن تنزل، لكنها قررت النزول، نظرت إلى ملابسها فوجدتها مكرمشة، وبها آثار عرق، فتضايقت ثم ارتدتها على عجل، أغلقت محبس المياه، وأنبوبة البوتاجاز، ومفتاح الكهرباء الرئيسي، وتأكدت من غلق جميع نوافذ وشرفات الشقة الواسعة، وأوصدت الباب، ثم نزلت.

فضلت الرجوع إلى محل الموبايلات البعيد سيرا كما جاءت، لمحت الشاب القصير وفتاته النحيفة اللذين كانا يتشاجران، يسيران جنبا إلى جنب، يتلامس كتفاهما كل قليل، مرت سيارة مسرعة بجوارهما فوضع الشاب يده على خصرها وأبعدها عن الطريق، سار هو ناحية السيارات وأدخلها بجوار الرصيف، رن هاتف الفتاة، فنظرت هي إلى هاتفها، وحين وقفت البنت لتتكلم تجاوزتهما.

أدخل البائع الشريحة في الموبايل كما فعلت، فأصدر الموبايل نغمة النوكيا المميزة، وأمال التليفون ليريها شاشته فلمحت الكف الكبير وهو يحتضن الكف الصغير، علامة بدء التشغيل، سألته:

- ماذا كانت المشكلة؟

- المشكلة عندك.. لا تعرفين طريقة تشغيله.

رفض أن يأخذ منها نقودا، وقال:

- اعتبريها خدمة مقابل التي تشيرت.

تضايقت لأنه لم يفعل أكثر مما فعلته، ولأنها قطعت كل هذا المشوار، أمسكت بالموبايل في يدها، وشكرت البائع، وانصرفت.

بعد أن سارت 10 خطوات أرادت أن ترجع لتقول له إنها تعرف جيدا كيف تركّب الخط في الموبايل، لكنها لم ترجع.

تركت علبة الخط في الشقة، حاولت تذكر رقمها فلم تفلح، رفعت الموبايل أمام عينيها، وطلبت رقما عشوائيا، حتى جاءها الصوت على الجانب الآخر:

- ألو.

- مساء الخير.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- لو سمحت.. هل يمكن أن تخبرني بالرقم الظاهر أمامك على الشاشة؟

- ماذا تريدين؟ من تطلبين؟

- لا أريد أحدا.. هل يمكن أن تخبرني بالرقم؟

- أي رقم؟

- أريد أن أعرف رقمي أنا.. الظاهر أمامك.

- يبدو أنك تلعبين.. أنا المخطئ أنني قطعت الصلاة لأرد عليك.

أغلـق الخط فـي وجههـا، وضعـت الموبايل فـي جيبها، وأسـرعت خطواتها حتى ترجع لترى الرقم.

قلبي في مكان آخر

- 1 -

التقيتُ فيروز قبل موعد حظر التجول بساعتين، شربنا شايا بالحليب، أشعلتُ سيجارتين لنا، وجلستْ تحكي عن حياتها دون ترتيب، كما يرد في رأسها، تبتسم وتحزن وتدمع أحيانا بطفولية، المسجل يعمل وأنا أشرد معها وعنها في حياتها وحياتي، أبحث عن نقاط تلاق بيننا، وأنظر لها، وأشعر أن الجالسين حولنا يخمنون نوع علاقتنا.

عادت دينا إلى البيت، وشعرتُ أنا بغربتي.

في المرة الثانية التي التقيت فيها بسنت قبل أن نفترق، وقبل أن أتزوج دينا، انتظرتها أمام المسرح فخرجت مع زميل لها، فشعرت بقلبي ينقبض، وبان الغضب عليّ وهي تصافحني وتتركه ليركب سيارته بعد أن عرفتني به سريعا، ضحكت من غيرتي المبكرة كما أسمتها، وسألتني بسنت إذا كنت قد أحببت قبل ذلك، فأخبرتها ضاحكا أنني لم أحب على الإطلاق، وأنني في الغالب فاشل في الحب، أو أن الحب مجرد وهم، ضحكنا، ولم أدر أنني سأحب بسنت حبا معذبا، سيدمّر حياتي لعدد لا بأس به من السنوات، وأنني بعدها سأظل أتألم منْ جرح دامٍ في قلبي لن تنجح الأيام في شفائه.

هـدأت الأوضاع السياسـية هدوءا قلقـا، وبدأت الداخليـة في الرجوع لأعمالها على اسـتحياء، فضباط الأمس ممن جروا في الشـوارع بالملابس الداخليـة وشـهدوا حـرق أقسـامهم بأعينهم وفشـلوا فـي حمايتهـا، عادوا ناقمين، وأصبحت جملتهم المفضلة ردا على أي بلاغ سرقة أو حتى قتل:

- خلّ الثورة ترجع لك حقك.

تشـاجرنا كثيـرا في الفترة الأخيرة أنـا ودينا، فقـررت أن أترك البيت، استأجرت شقة في مدينة هرم سيتي خلف مدينة الإنتاج الإعلامي، بمبلغ ضئيل، وفرشتها بالأثاث الضروري جدا، سرير ودولاب وكنبة وبوتاجاز وسخان كهربائي وبعض الأواني.

وضعـت بعض ملابسـي فـي حقيبـة كبيـرة، وقبّلت كرمـة، وحملت الحقيبة وأغلقت باب الشقة خلفي، متخيلا أنني وجدت خلاصا لروحي، رغم أن كل شيء يشي بأن روحي ستظل ترقص من ألمها داخل قفص لا يمكن لها أن تتحرر منه.

ظلـت فيروز تحكي بحماسـة، كأنها أمام طبيب نفسـي، لا شـك أنها تحتاجه، لم يقطع استرسالها سوى الجرسون الذي وقف طالبا الحساب لأن المـكان سـيغلق اسـتعدادا لموعـد حظـر التجول، دفعتُ الحسـاب وقمنا، سرنا قليلا حتى موضع سيارتي، وفيروز كأنها لا تشعر بالزمان أو المكان مسترسلة في الحكي كأنها تتلو وصيتها الأخيرة.

ركبتُ السيارة وفيروز إلى جواري، تحكي عن زوجها، وفي كاسيت السـيارة أغنية لأحمـد منيب، رن هاتفي ثلاث مرات، بسـنت مرة، ودينا

مرتين، وحين لم أرد عليها أخبرتني في رسالة أنها تريد مصروف البيت.

رددت عليها باقتضاب: OK.

وجاءتني رسالة أخرى من بسنت: أين أنت؟

رددت عليها بأنني سأكلمها ولم أرد مقاطعة فيروز، حتى ألقت هي برأسها على رأس الكرسي وأغمضت عينيها، وطلبت مني رفع صوت الأغنية:

دنيا فيها الغالب.. تاني يوم مغلوب

أوصلت فيروز حتى باب العمارة، وتحركت بالسيارة، ولم يتبق سوى 5 دقائق فقط حتى موعد الحظر، أدركتها عند حاجز حديدي لم أتمكن من عبوره بكارنيه نقابة الصحفيين، وقف أمامي ضابط جيش متجهم، أخبرني أنه ينفذ الأوامر وأنه غير مسموح بالمرور إلا بتصريح مطبوع من الجيش نفسه.

ظللت أدور حول نفسي بالسيارة من حاجز إلى حاجز إلى حاجز، هاتفت بسنت وأخبرتها أنني محبوس في الشارع، ظللنا نتكلم في التليفون حوالي نصف ساعة حتى أعلن هاتفي قرب انتهاء شحن البطارية، فأغلقنا.

أتاني اتصال من فيروز تطمئن عليّ، فأخبرتها أنني محبوس بالقرب من منزلها فدعتني لقضاء الليلة لديها حتى موعد فك الحظر في الصباح.

صعدت إلى فيروز، ولم يحدث شيء بيننا، وهو ما لن تصدقه بسنت أبدا.

قدمت لي فيروز كوب شاي أخضر وقالت إنه مفيد، وأكملت حلقة من مسلسل تلفزيوني مازال يذاع رغم الأحداث، وقالت لي إنها ستخلد إلى النوم وإن البيت بيتي.

دخلتُ فيروز غرفتها وأغلقتها خلفها دون مفتاح، وأنا تجولت في الشقة متلصصا، وضعت هاتفي على الشاحن وأخبرت بسنت أنني لدى فيروز، وهي الغلطة التي سأظل أحاول إصلاحها لمدة شهر كامل، حتى تقرر بسنت الصفح عني، وتخيرني إما هي في حياتي وإما فيروز.

خرجت من عند فيروز صباحا وأنا أفكر، لن أترك لها احتلال الرواية بالكامل، لماذا لا أكتب عن نفسي، عن دينا وبسنت وكرمة، عن وقوفي الطويل حائرا أمام مفترق طرق، وفي كل مرة أسلك الطريق الخاطئ، كأنني أصارع للحصول على لقب بطل العالم في الاختيارات المؤلمة.

هل أحكي عن كل ما لم أختره: الأهل، الجينات، الاسم، الجنس، الجنسية، الدين، اللغة، التعليم، لون الشعر والبشرة، العيوب الخلقية والنفسية، وشقي أم سعيد؟

أم أحكي عما اخترته، وأخفقت فيه، أو توهمت أنني اخترته: العمل، الحب، الزواج، إنجاب كرمة التي تحمل اسمي خلف اسمها، هل اخترت هذا حقا؟ القميص الذي أرتديه، اشتريته لأنه كان القطعة الأخيرة، بالسعر المناسب، في تخفيض الـ70٪، في محل الماركات المتوسطة الذي أشتري منه ملابسي باستمرار، فهل اخترت قميصي؟

هل أملك رفاهية الاختيار، أم أنني جثة تعيش وسط ملايين الجثث، المركّبة كتروس في آلة كبرى، تستيقظ صباحا لعمل لا تحبه، ولم تختره، ثم لعمل ثانٍ من أجل تحقيق دخل إضافي زهيد، جثث تملأ الشوارع، والمواصلات العامة، والمطاعم، جثث تتشاجر، وتتحرش، وتسرق، وتنافق، ثم تعود إلى بيوتها آخر الليل لتدفن في أسرّتها، ثم تستيقظ صباحا لتكرر المهزلة.

هل أكتب كل هذا في الرواية؟

كيف ألوي عنق هذه الحياة العريضة لأنزفها في رواية ربما لن يقرأها أحد؟

- 2 -

قامت فيروز بردانة في الصباح، بحثت عني في الشقة فلم تجدني، ففهمتْ أنني نزلت، نظرتْ في ساعة الموبايل فوجدتها الثامنة صباحا، قررتْ النزول، وأن تشتري روبا ثقيلا حتى تلبسه في البيت.

بعد أن وصلتْ وجدت المحل الذي اعتادت الشراء منه قد تغيّر نشاطه وتحول إلى صيدلية، تذكرت أنها يجب أن تشتري مسكنا قويًّا للصداع النصفي، فدخلت إلى الصيدلية واشترت الدواء، وأجلت فكرة شراء المعطف.

مرت من أمام سينما درجة ثانية أو ثالثة تعمل رغم الأحداث، وتعرض فيلما أجنبيا، تجاوزت الأفيش الكبير الذي خلا تمامًا من صور الأبطال ولم يكن به إلا شجرة قديمة، ثم توقفت واستدارت متوجهة

إلى شباك التذاكر، ابتسمت للفتاة الجالسة خلف الزجاج، أخذت منها التذكرة ثم فكرت في أنها تريد الذهاب إلى البيت، ترددت في الدخول، لكنها دخلت في النهاية بمفردها، حتى دون أن يصحبها واحد من عمال الصالة، اختارت مقعدًا وجلست.

وهي صغيرة اصطحبتها أمها إلى السينما، كانت تعرض فيلم أبي فوق الشجرة، جلست أمها بجانبها وأحاطت كتفها بذراعها، اشترت لها كيس فيشار، تركتها تأكله، وحين بدأ الفيلم، ومال عبد الحليم حافظ على نادية لطفي ليقبلها، مالت أمها على أذنها وطلبت منها أن تغمض عينها:

- خالتك مريم لم يدمر حياتها إلا هذه الأشياء.

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما، مالت أمها بوجهها فجأة وحدقت في عينيها، وحين وجدت أنها لم تغمض وضعت كفها برائحة الفيشار أمام عينيها طوال الفيلم، ولم تكن تنزلها إلا حين تتعب أو حين تكون متأكدة من أن المشهد التالي نظيف.

تخيلت فيروز كل القبلات بين البطل والبطلة معتمدة على الصوت فقط، وعلى مقدار قوة ضغط أمها على عينيها، فحين يشتد الضغط يكون المشهد عاديا، وحين ترتخي أصابعها وترتعش قليلا تكون القبلة قوية.

أعجبتها موسيقى مقدمة الفيلم الأجنبي، وبدأ الفيلم بمشهد لعجوز تسير بمفردها في طريق طويل، يبدو عليها التعب، وكلما مرت بها سيارة أشارت لها.

في المشهد الثاني تحدث الممثلون بلغة لا تفهمها، ولم تكن هناك ترجمة على الشاشة، فكرت أن تنادي أحد عمال الصالة، وفكرت أن تقوم حين شعرت بالبرد من هواء التكييف وتذكرت الروب ودواء الصداع النصفي، لكنها لم تقم، بدأ الفيلم بأطفال يلعبون في فناء كنيسة، ثم جريمة قتل، ورقصات، ومطرب مغمور يحلم بالشهرة، والعجوز تظهر بين كل مجموعة مشاهد وقد أنهكت، وفي نهاية الفيلم، يصل كل واحد إلى ما يريد بينما تقف العجوز في وسط الطريق تمامًا، وتبدأ في حفر قبر، وحين تكمله، تنزل فيه لتجرب حجمه، تغفو قليلاً، ثم تستيقظ فتخرج منه، تخرج من حقيبتها ماكينة حلاقة بالبطاريات، فتحلق شعرها تمامًا ثم تلقيه في القبر، وتخلع طاقم أسنانها وتلقيه في القبر، وخاتمها الكبير، وقرطها، وسلسلتها، ومفتاحًا كانت تعلقه في رقبتها، ثم تخلع ملابسها قطعة وراء الأخرى وتلقيها في القبر، ثم تستدير وتعطيه ظهرها وليس عليها إلا قميص أبيض يسترها، ثم تسير بنشاط في الاتجاه المعاكس دون أن تنظر خلفها.

حين ينتهي الفيلم تضبط نفسها وهي تبكي، وعمال الصالة يدورون حولها، بعد أن تضاء الأنوار، تخرج، وتجلس على المقهى المواجه للسينما، وتروح في النوم.

-3-

تزوجت فيروز من شقيق خطيبها الخامس، ظلت مخطوبة للأخ لمدة شهرين، بعدها عاد أخوه الأكبر من فرنسا بعد غياب 6 سنوات، حيث كان يدرس التخطيط العمراني، كانت موجودة وقت عودته المفاجئة، لم

يخبر أحدًا، ودخل بحقيبة صغيرة كأنما كان في النادي. صافح الجميع وقبّلهم ببساطة، وقال لأخيه:

- خطيبتك حلوة.

قررت في هذه اللحظة أن هذا الرجل سيكون زوجها.

بعدها بسبعة أشهر كانت تجلس معه في مكتب مأذون شرعي. تقاضى أجرًا زائدًا حتى يزوجها دون وليّ، وأرسل مساعده في طلب الشاهدين من على المقهى القريب.

قالت:

- زوّجتك نفسي بنفسي.

قال:

- وأنا قبلت الزواج منك.

أول مرة تنتبه إلى صيغة الزواج، المرأة هي التي تعرض نفسها على الرجل، وهو الذي يقبلها أو يرفضها، خرجت متأبطة ذراعه وشعرت أنها راضية تمامًا، وهو لم يهتم بتهديدات أسرته بمقاطعته بعد محاولة أخيه الانتحار، حين أدرك أنه أخذ منه خطيبته.

استقلا القطار إلى الإسكندرية، قبّلها للمرة الأولى في محطة طنطا أمام كل الركاب، نامت بعدها ولم تستيقظ إلا في محطة الوصول.

في الفندق رفضت أن تصعد معه، فصعد بمفرده مع العامل الذي فتح له الغرفة، أغلق الباب على الحقائب، ونزل لها.

كان الوقت ليلا، اشترت لباسيْ بحر لها وله، قال لها:

- الجو بارد جدا.. ونحن بالليل، وفي يناير، ماذا سنفعل بهما؟

جذبته من يده نحو الشاطئ، دفعته إلى غرفة تغيير الملابس، خرج لها بعد وقت طويل بلباس البحر وهو يرتعد، جذبته من يده وجرت به نحو الماء:

- لا تخف.

صعقت برودة الماء جسديهما في البداية، ثم اعتادا عليها، لم يكن هناك أحد على امتداد بصريهما في كل الاتجاهات.

في الثالث عشر من يناير، في الساعة الحادية عشرة والثلث مساء، في مياه البحر الأبيض المتوسط، بدأ كل منهما يكتشف الآخر، وحين دقت الساعة منتصف الليل بالخارج، كانت ليلتهما الأولى وسط المياه.

- 4 -

حين اكتشفت خيانته لها لأول مرة لم تتخيل ولم تخبره أنها عرفت.

انتهز فرصة عدم وجودها وأتى بزميلته في العمل إلى الشقة، كان يمكن أن يمر الأمر دون أن تعرف، لولا أنها وجدت مشبك شعر غريبا خلف السرير.

بكت فيروز ليلة كاملة، وفي اليوم التالي استدعت ابن الجيران الذي كان يتعمد مضايقتها أثناء صعودها ونزولها، اتفقت معه على أن يأتي إليها في الشقة قبل موعد عودة زوجها بربع ساعة، شعر الشاب أن محاولاته

معهـا أتـت بنتيجتها أخيـرًا، طلبت منه أن يخلع ملابسـه فـي الصالة وأن يدخل لينتظرها في غرفة النوم حتى تخرج هي من الحمام.

ترك الشـاب ملابسـه في الصالة وانتظر عاريًا في غرفة النوم، أغلقت عليه باب الغرفة بالمفتاح من الخارج، وقالت له:

- 5 دقائق وأرجع لك.

نزلت، وانتظرت زوجها أمام مدخل العمارة، حين جاء أعطته مشبك شعر زميلته، وكل ملابس الشاب، ومفتاح غرفة النوم، ولم تبك.

- 5 -

حاولتُ إقناع بسنت أنها مجنونة، وأن كل علاقتي بفيروز هي الرواية، وأن حياتها مثيرة فعلا، وأن فيروز ربما تكون بابا واسـعا لي للدخول إلى الوسـط الأدبـي برواية أولى قوية، أقسـمت لهـا بالله وبحيـاة كرمة دون فائدة، قالت لي بحسم للمرة الثانية: أنا أو هي، فأخبرتها بعدها بأيام أنني قطعـت علاقتي بفيروز تمامـا، فارتاحت، وأصبحت أقابل فيروز دون أن تعرف بسنت، أصبح الوضع ملتبسا، وأنا أشعر أنني أخون دينا مع بسنت وأخون بسنت مع فيروز، تحولت علاقتي بدينا إلى بضع مكالمات هاتفية مـن أجل الضروريات، ولقاء أسـبوعي أرى فيه كرمة، وأصبحت بسنت تزورنـي أحيانـا في شـقة هرم سـيتي، وكل منـا حريص علـى ألا تتجاوز اللقاءات حد الأمان، لتظل كما هي، حتى لا تتعقد الأمور أكثر.

كما جاء في أدبيات سنجر

- 1 -

عدت من العمل إلى شقة هرم سيتي متعبا لدرجة أنني خلعت حذائي بصعوبة، وارتميت على السرير بملابسي، لم أشعر بنفسي إلا في الصباح، وبجواري كمية كبيرة من أعقاب السجائر المحترقة لا أدري كيف ولا متى دخنتها، كل ما أذكره أنني حلمت بطرقات عنيفة مزعجة على باب الشقة، قمت وفتحت الباب فوجدت زوج فيروز في مواجهتي، يرتدي بيجامته الأنيقة ويمسك بيده صفارة، أطلقها في وجهي عدة مرات وهو يشير بيده لي كأي رجل مرور لكي أفسح الطريق.

سألته:

- من أنت؟

أجابني:

- أنت تعرفني.

دفعني بيده برفق ليفسح لنفسه ودخل.

جلسنا متجاورين على سريري، أشعلت لي وله سيجارتين، ثم أخرج من جيبه ورقة كبيرة، وقلم رصاص، ومسطرة حرف T، تعجبت كيف

أدخلها في ملابسه، فرد الورقة على منضدة الطعام، وظل يفكر ويصفر وأنا أنظر له نظرتي إلى طبيب على وشك أن يصارحني بحقيقة مرضي، لم يتكلم أو يلتفت إليّ، ظل يدخن سيجارة تلو الأخرى، ويرسم خطوطا مستقيمة، ومتعرجة، متوازية، ومتداخلة، ووسط الرسم يضع علامات إكس كثيرة، ويرسم وجوها صغيرة لا تظهر ملامحها، ويكتب كلمات بلغة غير مفهومة، وكلما حاولت سؤاله أو مقاطعته، ينظر إليّ نظرة تسكتني، فأواصل التدخين.

امتلأت الحجرة بالدخان حتى صرت لا أراه ولا يراني، سألته:

- ماذا ترسم في هذه الخرائط؟

أتاني صوته من مكان بعيد محاطا بأصوات نباح كلاب، وأبواق سيارات، ونداء باعة جائلين، ومشاجرات زوجية، وصافرات إنذار، وانفجارات، قال لي إن حياتي بحاجة إلى تخطيط، وإنه سيبدأ العمل على هذا المشروع منذ اليوم، سألته:

- ومتى يمكن أن تنتهي؟

لم يرد عليّ رغم إلحاحي في السؤال، وحين انقشع الدخان لم أجده في الغرفة.

استيقظت من نومي، قمت وغسلت وجهي وألقيت منفضة السجائر في علبة القمامة، وتأكدت من أن باب الشقة مغلق بالمفتاح من الداخل كما تركته بالأمس، دخلت غرفة النوم مرة أخرى، فوجدت ورقة كبيرة بها خطوط غير مفهومة، ورسوم واضحة لوجوه كثيرة، تعرفت فيها على

زملاء الابتدائي، وأعداء الجامعة، وإخوتي، وكرمة، ودينا، وبسنت، ووجدت وجه أمي حزينا، وأبي بجوارها ينظر لي في لوم.

قلبت الورقة يمينا ويسارا، وأعدت التأكد من غلق باب الشقة والنوافذ، نظرت في الساعة فوجدت أنني تأخرت على العمل، تركت الورقة في مكانها، ودخلت لأستحم وأغلقت باب الحمام ورائي جيدا، للمرة الأولى.

- 2 -

قضيت يوم عمل طويلا في الجريدة لمتابعة فض قوات الأمن لاعتصام التحرير، وبدء محاكمة مبارك، ونجليه، ووزير الداخلية حبيب العادلي وكبار مساعديه، وسط تهليل من الزملاء الثورجية، وأسى من رئيس التحرير المنتمي لنظام مبارك، وبعض الزملاء ممن يهمهم رضا رئيس التحرير، رغم إعلانه النزول للميدان والانضمام للثوار، في أبريل ومايو 2011 حتى يصبح بمأمن من العقاب.

خرجتُ من الجريدة وفكرت أن أتصل ببسنت لأقابلها، وفكرت أن أعود إلى البيت، لكنني ظللت جالسا في حرارة أغسطس داخل السيارة لدقائق، ثم أدرت المحرك وشغلت المكيف وأمسكت الهاتف واتصلت بفيروز، فلم ترد حتى نهاية الجرس، فقررت أن أذهب إلى أمي، التي لم أذهب لها منذ مدة طويلة مكتفيا ببعض المكالمات الهاتفية بين وقت وآخر.

في الطريق اتصلت بسنت، ثم دينا، ثم فيروز، فلم أرد على أي منهن، لأواصل الاستماع إلى برنامج يتحدث فيه إعلامي شهير، كان يرأسني

في فترة سابقة، ثم ترك الصحافة ليتفرغ لبرامج التوك شو، وهو يتحدث عن مستقبل مصر المشرق في ظل رعاية الجيش لكل شيء، رغم أنه في الجلسات المغلقة ليس لديه هم إلا شتيمة العسكر.

اتصلت بأمي وأخبرتها أنني في الطريق إليها فردت باقتضاب:

- ماذا تريد أن تأكل؟

أخبرتها أنني طلبت طعاما في العمل وأكلت، وأغلقنا.

- 3 -

لو ورد سؤال إجباري عن أمي في امتحان نهاية حياتي، سأجيب عنه بارتياح وسأحصل فيه على الدرجة النهائية.

يمكنني أن ألخص أمي في 3 أشياء: لن تخبر أحدا أبدا أنها غاضبة، ولم ترض يوما عن زواجها بأبي، ومازالت تشعر أنها صغيرة، رغم أنها لو ظلت موظفة بالحكومة التي تركتها بعد شهرين فقط من العمل لأجل الزواج لكانت محالة إلى المعاش منذ أعوام.

تقول دائما إن قطار العمر توقف بها عند سن الثامنة عشرة، ثم انطلق تاركا إياها في هذه المحطة، تكبر كل الأشياء من حولها، أوراق التقويم، وأعمار الجدران والأثاث والأجهزة الكهربائية، والحمل الثقيل، ونحن أولادها الأربعة، وأبي، حتى ملامحها في المرآة، ووزنها في الميزان الديجيتال الذي أهديته لها في أحد أعياد الأم، لكن تظل روحها كما هي بنت 18 عاما، لذلك لم تشعرنا للحظة أنها أم، هي أخت كبرى، ثم

صديقة، ثم أخت صغرى أو ابنة حين كبرنا، يجب علينا محايلتها والعناية بها وبمشاعرها التي لم تكبر أبدا.

أمي جزيرة أمان في هذا العالم، كانت تنهرنا صغارا حين نرشف بقايا القهوة في فنجان أبي، وتخبرنا أن القهوة تحرق الدم، وتسهب في وصف الأنيميا ومخاطرها علميا، وتفخر بحفظها لكل فوائد الفواكه والخضروات وكأنها جوجل مبكر قبل اختراع محركات البحث، فالخيار يقوي المفاصل ويجعل البشرة مشرقة، والكوسة غنية بعنصر النحاس، والرمان يحافظ على المعدة وينظم ضربات القلب، والفراولة والجوافة والبرتقال غنية بفيتامين سي.

ضربتني أمي عدة مرات وأنا صغير، لكنها تنكر، تقول إنها لم تضربني سوى مرة واحدة، حين عدت لها وأنا في الصف الثالث الإعدادي برائحة سجائر قوية تفوح من فمي وملابسي، خلعت أمي سلك الكهرباء الخاص بالمسجل الجديد الذي اشتراه أبي من السعودية وهو عائد من موسم الحج، وظلت تضربني بشكل متواصل غير مبالية ببكائي وصراخي، تفخر طوال الوقت بهذه العلقة، وترى أنها السبب في كوني غير مدخن وهو ما يقيني بالضرورة من سرطان الرئة الذي توفي به أبوها بسبب شراهته في التدخين.

لم تعلم أمي أبدا أنني أدخن، وأن كل ما فعلته العلقة هو أنني تجاوزت الخامسة والثلاثين ومازلت في كل مرة حين أحضنها أرتعب من أن تشم مني رائحة سجائر.

بيت جدتي لأمي هو الجنة التي دخلتها طفلا وخرجت منها مراهقا حين رغبت في رجولة مبكرة تخيلت أنني لن أحصل عليها إلا بالانفصال عن كل الأحضان التي كانت تهدهدني، وتفرش لي العالم اهتماما.

تمر الأيام لتُعمِّق اجتثاثي من تربة عائلتي، فأخوالي وخالاتي الستة لم أر أحدا منهم منذ سنوات طويلة، لدرجة أنني لو قابلت أحدهم في الشارع صدفة فربما لا أعرفه.

ويظل بيت جدتي في خيالي الطفل حلما مرّ ولم أتمسك به. تجلسني جدتي أمامها للمرة الألف ربما، لتعدد لي مميزاتي كما تراها، وهي تلمس وجهي بأناملها الطيبة:

- أول شيء، هذا شعرك الناعم، وعيناك البنيتان، وخدودك المكلبظة، ولديك غمازتان حين تضحك، وضحكتك حلوة، وأسنانك مرتبة كأنها عساكر جيش، ولديك طابع حسن جميل يمكن أن يغنوا فيه الأغاني.

تصيح فيها أمي بأنني ولد، وأن المهم الأخلاق والتربية، وليس جمال الشكل، فتقول لها جدتي:

- قال مالك متربي؟.. قال من عند ربي.

حين أكبر سأعرف أنهما كانتا تخدعاني، فأول شيء شعري ليس ناعما، وأسناني مرتبكة كحياتي، ولا أملك غمازات، وقليلا ما تضحكني الدنيا، أما عن الأخلاق، فهي أسوأ ما يمكن أن يواجه به شخص العالم بكل من فيه من عديمي التربية الذين نقابلهم يوميا.

أنتظر عيد الفطر من العام إلى العام، فقبل نهاية رمضان بأيام يتحول بيت جدتي إلى خلية نحل، أبي يشتري الدقيق، والشمر، ورائحة الكعك، والفانيليا، والمناقيش، وتخرج أمي ماكينة البسكويت من دولاب المطبخ، ويحضر خالي الأصغر الصاجات من الفرن، ونجلس جميعا، يزيد عددنا على العشرة أشخاص نعد كعك العيد، وتنتحي بي أمي جانبا، لتشكل لي ألعابا من عجين الكعك، فهذه كعكة على شكل سيارة، وهذه على شكل طيارة، وهذه عصفور، وهذه الكعكة فيل بخرطوم طويل.

ننتهي جميعا من صاجات الكعك والبسكويت وبإصبع طباشير تم شراؤه خصيصا لهذه المهمة، تكتب أمي اسمي على كل الصاجات حتى لا تتبدل في الفرن، فأشعر بفخر عظيم، لم أشعر به أبدا بعد ذلك، حتى حين رأيت اسمي منشورا على أول خبر لي في جريدتي الكبرى رغم أنني كنت لم أتخرج بعد.

- 4 -

وأنا في الصف الثاني الثانوي، كانت أمي تذهب إلى دروس تحفيظ القرآن في مسجد بعيد عن البيت، يسمى المسجد الكويتي لأن تكاليف بنائه جاءت كمنحة من دولة الكويت، فضلته أمي عن غيره من المساجد القريبة التي تحفظ القرآن، نظرا لسمعته، ولأن الأخت أم سيد المُحفِّظة هناك، متمكنة، وتحفظ القرآن بأكثر من قراءة، وتتقن التجويد، وماهرة في تعليم مخارج الحروف، ظلت أمي على مدار عامين تذهب إلى المسجد الكويتي مرتين أسبوعيا، وأصبحتُ -لا أذكر لماذا ولا كيف- مكلفا بتوصيلها من وإلى المسجد، أرافقها حتى الباب، ثم أذهب إلى

أحد الدروس الخصوصية، أو إلى أحد أصدقائي القريبين نلعب الأتاري أو البينج بونج أو نجلس على المقهى، حتى موعد خروجها، فأعود لأصحبها إلى البيت، تحكي لي في طريق الذهاب بطرق مختلفة تعاستها مع أبي، وكيف كانت حياتها ستختلف 180 درجة لو لم يضغط أبوها عليها لتتزوج به، وتضفر في حكايتها أمجادها في الوظيفة الحكومية في مدة خدمتها القصيرة، وتسرد معاناتها مع جدتي يسرية أم أبي، وتحكمها فيها، لدرجة التعذيب بالأعمال المنزلية التي تفوق طاقتها.

وفي طريق العودة تحكي لي كل ما حدث في المسجد، لدرجة أنني حفظت أسماء كل الأخوات، وقصص حياتهن، ومشاكلهن، وشهدتُ طلاق أم حفصة من زوجها الشيخ رجب صاحب محلات اللحوم المستوردة، وعاصرتُ وفاة ابنة الأخت أم سناء منتحرة، وذهبت مع أمي إلى بيتها لتقديم واجب العزاء، وصرت أحمل أكياس السكر والأرز والسمن والمكرونة للأخت بدرية مرة شهريا بعد وفاة زوجها في حادث تصادم القطارين الشهير وقتها.

اهتمت أمي بالموضوع واعتبرته تحديا أخرجتْ فيه كل طاقتها في تلك الفترة، حتى تمت ترقيتها من درجة طالبة علم كما كان يطلق عليها، إلى رتبة مُحفِّظة تحت إشراف الأخت أم سيد، تأخذ أمي مجموعة من 3 أو 4 أخوات، وتنتحي بهن ركنا بجانب أحد أعمدة المسجد، لتحفظهن الثلث الأخير عم، وتبارك، وقد سمع.

في هذه الفترة اقتربت من أمي كثيرا، كانت تعتبرني رجلها، وذات مرة بعد انتهاء الدرس وجدتها تقف مع امرأة مسنة أمام المسجد، والمرأة

تبكي، وبعد أن انصرفنا أخبرتني أن المرأة هي الأخت أم إبراهيم، وأنها تبكي لأن إبراهيم عريس جديد، تزوج منذ 6 أشهر، وبعد أن كان مقيما معها، أصبح لا يزورها إلا مرة واحدة كل شهر، بكت أمي متأثرة وهي تحكي أن إبراهيم ابن عاق، وحذرتني أن أصبح مثله حين أكبر، دون أن تعلم أنها ستعتبر إبراهيم مقارنة بي حين أتخرج وأعمل وأدور في ماكينة الحياة وليا من الصالحين.

وأصبح إبراهيم الذي لا أعرفه لا أنا ولا هي، ولم نره مرة واحدة في حياتنا، وحدة قياس للبعد بيني وبينها، فإذا تأخرت شهرا على زيارتها تقول لي:

- خل بالك.. واحد إبراهيم.

وإذا تأخرت عليها شهرين، تقول:

- 2 إبراهيم.

ركنت السيارة أمام العمارة التي تقطن فيها أمي، فخرج لي صاحب المحل الذي وضعت السيارة أمامه، طلب مني بفظاظة أن أركن بعيدا عن باب محله، لأنه مكان أكل عيش، فكرت أن أتشاجر معه، فنحن من مؤسسي هذه العمارة، وهذا المحل لم يفتح إلا مؤخرا، لكنني آثرت الحفاظ على هدوء أعصابي فتحركت بالسيارة وركنتها بعيدا، ثم عدت على قدمي، وركبت الأسانسير، وأنا أسترجع لحظاتي الجميلة مع أمي، وتوقي الطفولي الساذج لكي أكبر وأستقل بحياتي عن حياتها، فجأة توقف الأسانسير بين طابقين، شعرت بنفسي محبوسا بين جدران الأسانسير وكتلة

من الخرسانة في وجهي، تمنيت لو أمكن أن أساوم ببقية عمري على لحظة واحدة أقضيها مع أمي في طريق الذهاب للمسجد الكويتي أو العودة منه، أو في حضنها وهي تعد لي سيارات وطيارات الكعك، لكنني ضغطت مرة أخرى على زر المصعد فواصل صعوده حتى خرجت منه بأمان.

هل هذا أمان حقا؟

بمجرد خروجي اتصلت بسنت مرة أخرى، فرددت عليها بأن الخط سيقطع بسبب الشبكة، وأنني عند أمي، ثم أغلقتُ.

تمازحني بسنت دائما حين ترى ارتباكي في تسيير أمور حياتي، وعشوائيتي في اتخاذ قراراتي المصيرية، ووقوفي كالطفل الخائف أمام مفترق طرق مساراتي قائلة:

- هل تعلم من السبب في كل ما أنت فيه؟.

- من؟.

- أمك.

تضحك بسنت، وأضحك، وأتهمها بظلم أمي، وأن أمي كالبلسم تُطيِّب الجروح، لكنني في قرارة نفسي أدرك أننا صنائع مشوهة لآبائنا، الذين لم نخترهم، ونشعر أننا مجبرون على أن نحبهم رغم كل شيء، فليس في الإمكان الرجوع للخلف، وإلا لما اخترنا هذه الحياة من الأساس.

وقفت أمام باب الشقة وظللت أرن الجرس أكثر من مرة، حتى فتحت أمي الباب، أعطتني ظهرها ودخلت لتجلس في مكانها المفضل

على الأريكة أمام التلفزيون، حاولت أن أسلم عليها فتجاهلتني، وحين ألححت، نزلت دموعها، وأشاحت بوجهها وهي تقول:

- 6 إبراهيم مرة واحدة؟ 6 إبراهيم؟

- 5 -

ذهبت مع أمي إلى المسجد الكويتي للمرة الأخيرة، ثم وقفت خلف المسجد أدخن خلسة، وبمجرد أن انتهت سيجارتي المسروقة، وجدت أمي أمامي تبكي، حاولت تهدئتها وسألتها عن سبب بكائها فقالت إن أمن الدولة ألقى القبض على الأخت أم سيد، وظلت طوال الطريق تبكي وتدافع عنها وتقول إنها طيبة وفي حالها، وإنهم ظلمة، وأنا أقول لها:

- احمدي ربنا، أنك هنا ولست معها في زنزانة واحدة.

غضبت مني، وظلت تتتبَّع أخبار أم سيد لمدة أسبوع حتى علمت أنهم أفرجوا عنها وأن الأخت اعتزلت الملاعب الدينية تماما، وقررت تربية أبنائها، منعا للمشاكل.

فراغ رهيب عاشت فيه أمي لمدة شهر، ظلت خلاله تحاول البحث عن جامع آخر تواصل فيه حفظ وتحفيظ القرآن، دون جدوى، حتى رأت في إحدى رحلاتنا للجوامع إعلانا عن تعليم الخياطة على باب مشغل، فقالت لي:

- تعال نسأل.

دخلنا المشغل، فقابلتنا امرأة بدينة، شرحت كل شيء بالتفصيل، ولم نخرج إلا وقد أخذت من أمي مصروفات أول شهر، لتبدأ أمي

أمينة حسن المتولي مرحلة جديدة في حياتها، هي مرحلة سنجر كما كنت أداعبها وقتها، حين اشترت ماكينة الخياطة الشهيرة لتضفي على بيتنا الصغير ضجيجا محببا، ومصطلحات جديدة، مثل تزييت الماكينة، ولضم الإبرة، وكسر السن، ولتتحول كل ملابسنا إلى فئران تجارب بالتعديل والتفصيل والتمزيق.

لم نعد نذهب إلى الترزي لتصليح الملابس الجاهزة، ولم يعد أبي يفصل بنطلوناته لديه، صرنا زبائن دائمين عند محلات الأقمشة، هذا قماش للستائر، وهذا للملاءات، وهذا يصلح كبيجامات للنوم، وهذه القطعة الملونة تصلح فساتين للبنتين، لم يعد أحد من إخوتي يشتري زيا مدرسيا من محلات اليونيفورم، ولم ينقذني من هذه المذبحة سوى دخولي الجامعة، وشرائي لكل ملابس الخروج مع أصدقائي.

دخلت سنجر حياتنا، فلم تعد أبدا كما كانت قبلها.

- 6 -

سنجر، شركة مختصة في تصنيع آلات الخياطة، تأسست عام 1851 على يد إسحاق ميريت سنجر، في البداية كانت منتجاتها تُصنع في مصانعها بمدينة نيويورك، ثم غزت العالم، وتم تصميم خط إنتاج ماكينات خياطة لمصر خصيصا، سمي بـ"موديل- 27، ويعرف باسم كليوباترا أو ممفيس، لأنها مزينة بنقوش ذهبية فرعونية يتوسطها اسم الشركة بخط كبير.

«الصديقة المخلصة للمرأة حول العالم» كان شعار تسويق الموديل 27 في أدبيات سنجر، وأنتجتها الشركة عام 1898 ضمن مجموعة من

الموتيفات المنقوشة برسوم ذهبية تناسب البلد الذي سوف تصدّر له، ومنها الموتيفات الفارسية والعثمانية والفيكتورية، وأخيرا المصرية وهي الأعلى انتشارا في الشرق الأوسط.

«جلدية وتناسلية»

- 1 -

تفتح فيروز عينيها فجأة، تمد يدها إلى الموبايل الموضوع بجوارها، وتضغط عليه فيضيء، تنظر إلى الساعة، فتجد أنها لم تنم إلا ساعتين، تحاول النوم مرة أخرى دون فائدة، تنهض وتذهب إلى الحمام تغسل وجهها، ترتدي ملابسها على عجل، وتنزل.

بمجرد أن تخرج تنبح عليها كلاب الشارع الخالي، ولا تتركها إلا حين تمر سيارة مسرعة فتنشغل الكلاب بها عنها.

تشتري جريدة الأهرام، وعلبة سجائر، وتصعد بيتها مرة أخرى.

تفتح الجريدة على صفحة الأبراج مباشرة، الميزان: مزاجك أفضل، يمكنك اليوم أن تبدأ من جديد.

تؤثر الجملة فيها، فتقوم وتشغل أغنية فيك عشرة كوتشنية لمحمد عبد الوهاب من اللاب توب، وتصنع لنفسها كوب شاي أخضر، وتفتح النوافذ، وحين تنتهي الأغنية تشغل عددًا من الأغنيات لصباح تبدأها بـ الدوامة.

تشعل سيجارة وتفرد الجريدة على طاولة السفرة، تقرأ صدق أو لا تصدق، تفكر في حل الكلمات المتقاطعة، ثم تتراجع، تقلب الجريدة، حتى تقف عند إعلانات مبوبة، وظائف خالية، تبدأ البحث عن عمل يناسبها: مطلوب إخصائية اجتماعية لمدرسة لغات كبرى.. مطلوب عمال ودبلومات من الجنسين بدون خبرة بمرتب ثابت وإقامة للمغتربين.. مطلوب سوبر فايزر فرنساوي لمدرسة لغات بمدينة نصر والمقابلة بالسيرة الذاتية وصورة شخصية حديثة ممنوع المدخنين.. طبيب مشهور بباب اللوق يطلب سكرتيرة تنفيذية تجيد الكومبيوتر والإنترنت ويفضل إجادة الإنجليزية ولا يشترط السن.

تقص الإعلان الأخير وتضعه أسفل زجاج ترابيزة السفرة، تشعر برغبة في النوم، تغلق اللاب توب، تضع الجريدة فوقه، وتدخل لتنام.

- 2 -

جلست فيروز على أرضية الحمام وأخرجت السويت من الكيس، عرضته على النار حتى لان، شدته بيدها ورققته، بللت يديها بالماء وعجنت الحلوى بين أصابعها، كورتها، وفردتها، شدتها وضغطت عليها، حتى بدأت في فقدان لونها الذهبي ومالت نحو الأبيض، آلمتها أناملها من الحركات المتتالية، ثم فردتها على جسدها، بدأت من أصابع قدميها، لها سنتان تقريبا، نسيت ذلك الألم الذي يخرج بالشعرة من جذورها، تذكرت حكايات أمها عن ساق خالتها مريم التي كان شباب الحي يحلفون ببياضها وينتظرون طويلا أمام البيت حتى يروها خلسة وهي تنزل أو تصعد إلى السيارة بجوار والدها،

دارت بالحلوى حول ركبتها، لأنها تتدغدغ وتضحك حين تجذب الشعر من هذه المنطقة.

الفخذ هو المنطقة الأشد إيلاما، أخذت نفسا عميقا من سيجارتها كأنه مسكن للألم القادم، شمت رائحة الحلوى المحترقة على السيجارة التي تلوثت من أصابعها، ثم نزعت بسرعة وقوة، لم تأت النتيجة مرضية، فكررت مرة أخرى، وأخرى، في البداية يكون الألم أشد، ثم تتخدر المنطقة، ويتحول إلى نوع من المتعة، وتظهر نثرات من دم أحمر، تمسحها بظهر يدها.

العرق يحول دون التصاق الحلوى بالشعر، تجفف العرق بفوطة بجانبها، ثم تلصق الحلوى بالجلد، تذكرت المجلات العارية التي كانت تتبادلها مع صديقاتها في الكوافير، ابتسمت وأطفأت السيجارة في قطرة ماء على الأرض.

تنصهر الحلوى، ويصبح انتزاعها مستحيلا، فتحاول انتزاعها بقطع أخرى، تفشل، فتتوقف وتنزلق بجسدها في الماء الساخن في البانيو.

لم تكن تحب الدغدغة تحت الإبط، وحين كان زوجها يحاول الاقتراب من إبطيها كانت تشعر بقلق، أشارت عليها إحدى الزميلات بمعجون من الليمون والنعناع وحبة البركة وماء الورد، لكنه لم يستطع منحها الثقة في نفسها لأكثر من ساعة واحدة، بعدها تظل ملصقة ذراعيها بجانبيها، وتقترب من الرجال بمسافات محسوبة.

في المرة الأولى كان الشعر زغبا أصفر، مثل ذهب يلمع على سطح بشرتها البيضاء، أمها قالت:

- لا تنزعي الشعر.. لو فعلت سيصبح كثيفا، وتصبحين مثل الرجال.. خالتك مريم لم تستخدم الحلاوة إطلاقا.

الحلقة كانت مكونة من أمها وزوجة خالها وجارتين، موقعها الأصغر جعلها تتسلل خفية في نفس الليلة وتمسك بماكينة حلاقة الأب وتمررها على كل جسدها، وبعد ثلاث مرات، قالت لأمها:

- الشعر أصبح أسود، أريد أن أعمل معكن.

- 3 -

الدكتور ميخائيل يسي

استشاري الجلدية والتناسلية والعقم

زميل الأكاديمية الأوروبية للأمراض الجلدية والتناسلية

تدخل إلى المكتب، يُدْخلها العامل وهو يمسك المقشة التي كان يكنس بها على الطبيب، تجلس أمام الدكتور ميخائيل وهي مرتبكة، تمد له يدها ببياناتها، ليس لديها أي خبرة، وعمرها 45 عاما، لا تجيد سوى الكومبيوتر والإنترنت والإنجليزية بشكل متوسط.

أصلع في حوالي السبعين من عمره، يقرّب الورق من عينه على بعد 5 سنتيمترات تقريبا حتى يرى السطور، وحين يتكلم يخرج صوته بصعوبة.

- انظري يا ابنتي أنا أريدك في مهمة واحدة فقط.. هناك موقع إلكتروني على الشبكة العنكبوتية سأخبرك باسمه، طلب مني أن

أجيب على استفسارات القراء في تخصصي، المسئولون عن الموقع سيرسلون الأسئلة على بريدي الإلكتروني، لدي واحد، أنشأه لي شاب عمل لديَّ أسبوعا وطردته لسوء أخلاقه.. ومعي اسم المستخدم، والرقم السري.

فتح الدرج، أخرج منه أوراقا كثيرة، بحث بينها وهو يقرب عينه منها، حتى عثر في النهاية على ورقة صفراء مطوية، مد يده بها إليها:

- هذه هي الورقة.

فتحت الورقة فوجدت مكتوبا فيها: mikha.mikha221@gmail.com وأسفلها: الرقم السري: 123456789.

قال لها:

- أنا رجل قديم، لا أجيد التعامل مع هذه الأشياء الحديثة، فهل يمكنك أن تقومي بدلا مني بهذه المهمة الثقيلة؟

- آه طبعا.

- سوف تطبعين الأسئلة من الجهاز على ورقة من الطابعة أو تنقلينها في ورقة، وأنا سأرد عليها وأملي عليك الرد، ثم ترسلينها لهم عن طريق البريد الإلكتروني، وهم سينشرونها للقراء على الموقع.. متفقين؟

- متفقين.

- نبدأ حالا، الكمبيوتر بالخارج، اخرجي لجرجس الفراش وسيخبرك بمكان جلوسك.

استقرت في مقعدها خلف الكومبيوتر، فتحت الإنترنت، كتبت في الشريط العلوي: www.gmail.com.

بدأت عملها الجديد، بعد 20 عاما كاملة منذ آخر مرة عملت فيها.

-4-

فتحت إيميلها، وجدت رسالة من ابنتها:

From: mrmr_lovly@yahoo.com

To: fayroza2009@gmail.com

Subject: my kiss

ماما حبيبتي كيف حالك.

طمئنيني عليك؟.. أفتقدك جدا.

أعلم أنني ندلة، وأنني أتأخر عليك في الكتابة والاتصالات، ولكن الحياة صعبة، رسالة الدكتوراة مع الشغل، مع جون الصغير، حمل ثقيل، صاحباتي الغبيات عندك يحسدنني ويتخيلن أنني في جنة، لكنها ليست كذلك إطلاقا، صحيح، جون يقبلك من هنا وهنا، حتى في الويك إند يا ماما، ريتشارد لا يوافق أن نمكث في البيت أبدا، دائما ما يريد أن ينطلق ويذهب إلى أماكن جديدة.. ولا أريد أن أشعره أنني الفتاة المصرية المعقدة، ولا أريده أن يشعر أنني أقيده.

المهم كيف حالك يا قمر؟ وهل تزوجت؟ أكيد طبعا تزوجت، رغم أن الرجال في مصر أحيانا لا يقدرون الجمال، لكن ليس لدرجة ألا يروا قمرنا، يا قمر.

كنتِ قد أخبرتني برغبتك في القدوم والإقامة معنا، أنا فكرت في هذه الحكاية ووجدت أنك لن ترتاحي، أكيد في مصر حتى لو كنت بمفردك سترتاحين أكثر.. هنا الجميع مشغولون، صدقيني عندك سترتاحين أكثر، ولن تندمجي هنا إطلاقا.

سأحاول بعد مناقشة الدكتوراة أن أجيء لأقيم لديك في مصر شهرين كاملين.. حددنا أنا والبروفسير المشرف على الرسالة سنة ونصف للانتهاء.. هانت.

ماما، سأقوم لأن جون يبكي.. سأرسل لك صوره الجديدة.

باي.

- 5 -

فتحت إيميل الدكتور فوجدت عليه رسالة واحدة، فتحتها:

"السلام عليكم ورحمة الله

حضرة الدكتور ميخائيل أتمنى الرد والمساعدة.

أنا شاب أدعى عبده، أبلغ من العمر 23 سنة، أعاني من مشكلة مؤلمة، وهي أنه لا ينتابني أي شعور جنسي تجاه الفتيات، وأنا للأسف لا أستمتع ولا أفكر إلا في الأولاد، علما بأنني لم أتعرض لأي اعتداء جنسي من قبل، وهذا الشعور تجاه الأولاد يصاحبني منذ طفولتي، أي قبل بلوغي سن المراهقة بكثير، والسؤال هل من الممكن أن يكون هذا الشعور فطرة طبيعية؟ وأنا في الحقيقة لم أقم بأي عمل ينافي الأخلاق مع أي طفل من قبل، ولا أنوي فعل ذلك، في الحقيقة لا أعرف ما هو الحل، أنا شاب

خجول جدا تجاه هذا الموضوع، ولا أنوي أن أبوح به لمعالج نفسي، ولا أدري ماذا أفعل كي أحمي نفسي من الوقوع في هذه الغريزة المشينة؟!

طبعت فيروز الإيميل على ورقة، ودخلت بها إلى الدكتور، أعطتها له وخرجت مسرعة وهي تشعر بالخجل من مضمون الرسالة.

بعد قليل أتت فتاة ودخلت على الدكتور مباشرة، بعدها خرج وهو يتكئ على ذراعها، قال لفيروز:

- تريز ابنتي.. سأذهب إلى البيت.. انزلي أنت أيضا.. وتعالي غدا مبكرا.

- 6 -

عزيزي:

ليس من اللازم أن يتعرض الشخص لاعتداء جنسي لكي يقع في المثلية الجنسية، وليس من اللازم أيضا أن يكون ما تعاني منه انحرافا لا علاج له، فما يسهل العلاج في حالتك أنك لم تسع إلى إقامة علاقة مثلية، وكل ما سيفعله الطبيب النفسي هو فك هذا الارتباط الشرطي بين الإثارة والرجل، وزرع إحساس الإثارة الجنسية تجاه المرأة رويدا رويدا بمجموعة تمرينات يستخدمون فيها أحيانا صورا نسائية أو فانتازية.

«ووالد وما ولد»

- 1 -

استيقظتُ من النوم هادئ البال، بلا مبرر، أدرت أغنية أحبها من اللاب توب، كررتها حوالي 10 مرات، وأنا أعد الشاي باللبن ثم وأنا أشربه، وأدخلت اللاب توب معي إلى الحمام لأسمعها وأنا أستحم، وحين توقفت الأغنية في وسط الاستحمام فكرت أن الحياة تستحق أن تكون بأزرار، كأي جهاز عرض يحترم مهنته، زر لإرجاع اللحظات السعيدة، وزر للإيقاف، وزر لتقديم اللحظات غير المرغوب فيها وتجاوزها، أنا شخصيا أحتاج إلى زر للمسح، سأمسح أشياء كثيرة وأعيدها من البداية.

ارتديت ملابسي، وخرجت، ركبت السيارة فوجدت زوج فيروز يجلس في الكرسي المجاور لي، حييته، وأدرت نفس الأغنية من كاسيت السيارة، لكنه لم يحبها، طلب مني أغنية لولا الملامة لوردة، فبحثت عنها وشغلتها له، حكي لي أن هذه الأغنية كانت من الأغاني المفضلة له هو وفيروز، أو أنها كانت تدعي أنها تحبها مجاملة له، شكا لي من فيروز وأنها لم تعد تهتم به كما كانت في السابق، وأنه يظل ينتظرها طويلا في إشارات المرور، لكنها لا تأتي.

ظل طوال الطريق يخبرني عن الفرق بين الحياة في مصر وباقي العالم، وأن ما يميز حياة عن أخرى هي التنظيم، وأنه تعب كثيرا، ورسم أكثر من ألفي خريطة لتنظيم حياته هو شخصيا حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، عطس ثم مسح يده في بيجامته، وأخبرني أن الراحة هي الكنز المفقود.

سألته عن مشروعي الذي يعمل عليه، فقال لي إنه تقدم فيه إلى حد ما، وأخرج لي ورقة جديدة بها خطوط معقدة أكثر من سابقتها، وعلامات إكس أكثر، وبلا وجوه، وقال لي إنه وضع يده على المشكلة، وهي أنني مثل الجميع، لا أؤمن به.

- 2 -

دخلت الجريدة متأخرا ومنفعلا، بسبب سائق حمار صدم سيارتي من الخلف وأنا أركن، ثم هرب ولم أستطع اللحاق به.. لم تهدئني كلمات السايس حين أخبرني أن كل ما يأتي في الريش هو عبارة عن بقشيش، لوحت له بيدي وتركت له المفتاح ليكمل ركن السيارة وانصرفت.

على باب مكتبي تشاجرت مع رئيس التحرير حول خطأ في خبر منشور، حاول تحميلي إياه رغم أنه خطأ في إخراج الصفحة لست مسئولا عنه، جلست على مكتبي وطلبت نسكافيه، فتحت الكومبيوتر على الفيس بوك، تصفحته قليلا، وألغيت طلبات الصداقة الجديدة، وأضفت بنتا أعجبتني صورها، قرأت إعلانا عن إقامة ورشة روائية في دولة خليجية، لمدة خمسة أيام، بتمويل من مؤسسة أجنبية غير هادفة للربح، دون اشتراط نشر أي أعمال سابقة، يكفي فقط إرسال تصور

للرواية، ونموذج كتابي لا يزيد عن 10 صفحات، ترددت قليلا، ثم دخلت إلى الموقع، وملأت استمارة إلكترونية، وأرفقت ما أنجزته من الرواية، وأرسلته.

رن هاتفي فوجدت أخي الأصغر هشام يتصل بي، استغربت المكالمة، فلسبب ما في تربيتنا أو جيناتنا، لا يوجد أي تواصل بيني وبين إخوتي إلا في المناسبات كإفطار أول يوم رمضان أو الأعياد، أو في الحالات الطارئة كهذه المرة، رددت على التليفون، فوجدت صوت هشام مرتبكا، أخبرني بسرعة أن أبي في مستشفى قصر العيني بعد أن سقط جزءٌ من الحائط على يده أثناء عمله في إعادة تشطيب الشقة، قلت له:

- اذهب وسآتي خلفك.

أخبرني أنه في العيادة وأمامه 3 كشوفات، لن يستطيع تركها لأنها طوارئ، انفعلت عليه جدا:

- يعني الكلاب أهم من أبيك؟ أنت ابن كلب صحيح.

أغلقت الخط في وجهه، وأغلقت الكومبيوتر، نزلت دون أن أخبر أحدا ليحل محلي في العمل، وقلت:

- في داهية الشغل.

كبير العائلة، هذا هو اللقب الذي كانت تمنحني إياه جدتي لأمي، وعمري 4 سنوات، فأنا الحفيد الأول لها، ثم توالى الأحفاد، والآن أنا لا أعرف شكل أو عنوان أو أي تفاصيل من أي نوع تخص أبناء أخوالي وخالاتي أو أعمامي وعماتي، رغم أننا قضينا كل طفولتنا معا.

ذهبت إلى المستشفى فوجدت أمي تبكي، ومعها أختاي سلمى وهند اللتان قاطعتهما تقريبا منذ تزوّجتا لأنني لا أحب زوجيهما، سلمت عليهن وسألتهن عن أبي فقلن إنه في غرفة العمليات.

أتى هشام مهرولا، فنظرت له بقوة ولوم فتجاهل نظرتي وسلّم على أمي وهند وسلمى، دخل خلفه زوجا هند وسلمى يحملان أكياس بلاستيك بها عصائر معلبة، تبادلنا سلامات عابرة وسريعة بسبب الظرف، وجلس كل واحد منا بمفرده كحجز منعزلة، وقف زوج هند ليوزع العصير علينا فرفضنا، جلس بجوار زوج سلمى وفتح كل منهم علبة، وارتفعت أصوات شفط العصير في صمت المستشفى حتى خرج الطبيب وأخبرنا أنه تمّ بتر إبهام أبي.

- 3 -

سلمتني ممرضة بدينة شيئا ما ملفوفا في قطن وشاش أبيض، فنظرت لها دون فهم، مستفسرا، فقالت ببساطة:

- إصبع الوالد.

- 4 -

انصرفوا جميعا، ورافقت أبي إلا إصبعا في المستشفى لليلتين.

تطوعت للمبيت معه فارتاحت أختاي للفكرة، حاولت أمي البقاء لكني أجبرتها على الذهاب إلى البيت لأنها تكره المستشفيات ورائحتها وتتأثر صحيا، رحل هشام كأنه ضيف أدى واجب الزيارة، ليتابع عيادته البيطرية، ويواصل تحصيل النقود من أصحاب القطط والكلاب الأليفة

ليسدد أقساط الشقة والسيارة والنادي ومدارس أبنائه، فكرت أن كلاب هشام أكثر حظا منا جميعا، وتمنيت لو صرت كلبا مدللا لفتاة جميلة آكل أشهى الطعام، وأشرب أفضل الشراب، وأعالَج في أرقى الأماكن، وكل ما عليّ في هذه الدنيا هو أن أعبّر عن سعادتي بهز ذيلي، فيسعد كل من حولي.

- 5 -

أراد أبي أن يكون مريضا مريحا، لم يشعرني أبدا أنه حزين لفقد إبهامه، ظل طوال الوقت يحمد الله، يحاول أن يضحك وهو يخبرني أن لديه 10 أصابع، وأن نسبة الخسارة لم تتعد الـ10٪، وأن كلها كام سنة ويذهب الجسد كله، وأن المهم أن تكون الروح سليمة، والدين سليما، وعلاقة الإنسان بربنا سليمة، تخيلت أنني سأقضي معه يومي المستشفى لأؤازره في مرضه، لكنهما كانا بمثابة يوميْ سلام في علاقتي المتوترة به طوال حياتي، بسببه، طيشه وعنفه وعدم سيطرته على انفعالاته معي ومع أمي وإخوتي حتى تخرجت في الجامعة وتركت البيت واستقللت بحياتي، ظلت علامات غائرة داخل روحي لا أستطيع الهرب منها، تسلمني أبي من الحياة رضيعا كصفحة بيضاء وسلمني لها رجلا مشوها، يحتاج إلى كونسلتو من الأطباء النفسيين لإصلاح ما أفسده بداخلي دون أن يقصد.

كلنا جناة، نحمل في أيادينا آلات حادة غير مرئية نؤذي بها أقرب الناس إلينا، ندميهم، ونؤلم أرواحهم، ونحن نتخيل أننا ملائكة لم نفعل شيئا، وحين يواجهوننا بما فعلناه بهم نتألم جدا، ونعتذر: لم نكن نقصد.

بعد الجامعة بدأت مرحلة جديدة من علاقتي بأبي، لأنني قررت أن أتناسى كل ما مر وأن أكون بارا به، برًّا جعل علاقتنا شديدة السطحية: أهلا، وكيف الأحوال، وخلّ بالك من نفسك وصحتك، وألا تحتاج شيئا؟، وسلام، سلام.

يتوارى أبي في خلفية الصورة تماما، مقابل علاقة قوية وحقيقية بأمي حتى مع التواصل القليل.

لم تعرف بسنت أن سبب كل ما أنا فيه هو أبي وليست أمي، فأنا مع الوقت أتحوّل إلى نسخة منه، بكل ما كنت أكرهه فيه في طفولتي، الارتباك، العنف، تحويل حياة كل من يرتبط أو يتعلق بي إلى كوارث محققة، بمنتهى النوايا الحسنة التي تقود إلى جحيم مستعر.

بدأت جنايات أبي عليّ وعمري 3 أو 4 سنوات، كان يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم، برنامج براعم الإيمان، وينبهر بأطفال في أعمار 6 و7 و8 سنوات يحفظون القرآن كاملا، فقرر أن يخوض التحدي بي.

كيف تحفظ القرآن كاملا في ظرف عامين وعمرك 4 سنين بدون معلم؟

ليس من العدل ترك الأبناء لآبائهم دون إشراف من العالم، كيف يثق العالم في الآباء؟ تُركتُ لخيالات أبي دون أن يوقفه أحد، كان عمري 4 سنوات وأنا أتنقل بين مكاتب وجوامع وكتاتيب لتحفيظ القرآن، الشيخ سمير والشيخ عادل وأم نجلاء، والأستاذ صابر ظريف، ثم يكمل أبي عليّ في البيت بالمراجعة والتسميع وقراءة اللوح الجديد، لكن النتيجة لم

تكن مرضية، ولم أكمل سوى حفظ الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن، من الذاريات إلى الناس فقط، ثم أختم المصحف، ولم يستضيفوني في برنامج براعم الإيمان، ولم يسلمني رئيس الجمهورية ووزير الأوقاف شهادة تقدير في حفل ليلة القدر المذاع في التلفزيون، أخفق أبي في تحقيق حلمه الأول معي، فقرر مواصلة النضال، وبدلا من إلحاقي بمدرسة حكومية عادية أو مدرسة خاصة مثل أبناء إخوته، حمل شهادة ميلادي وبطاقته الشخصية، واشترى ملفا من الورق المقوى مكتوبا عليه بخط مضبوع طلب التحاق بالنصف الأول الابتدائي بالأزهر الشريف.

- 6 -

رافقني زوج فيروز أحيانا في الأوقات التي كان أبي يستسلم فيها للنوم، خفف عني عبء الوقت والانتظار، بحكاياته عن مستقبل العالم، مؤيدا كلامه دائما بخرائط مرسومة.

كل من بالمستشفى أحب أبي، بداية من الممرضات اللاتي كن يتسابقن على خدمته، مرورا بالأطباء الذين ظل يمازحهم رغم ألمه، حتى مدير المستشفى مر عليه فتذكره أبي ولم يتذكره المدير، حتى قال له أبي، وهو يغمز:

- انتصار.. الدور الثالث.

ضحك المدير من قلبه حين ذكّره أبي بحب طفولته، ولعب الكرة في شارعهم، ناداه المدير باسم شهرته وهو طفل، وقال له:

- الله يخرب بيتك.

جلس المدير وصرف الأطباء الذين كانوا معه، حكى لأبي أنه تزوج انتصار عامين بعد تخرجه مباشرة ثم طلقها دون أن ينجب منها، وأنه ندم عليها بعد ذلك، تكلما قليلا، وربّت المدير كتف أبي وأوصى عليه الأطباء والممرضين، غمز لي أبي بعد خروج المدير، وحكى لي أنه كان ينافس المدير في حب انتصار وهما طفلان، لكن يبدو أن المدير فاز بأشياء كثيرة في حياته، أما أبي فها هو يجلس أمامي مليئا بندوب الحياة لا يشبه إلا جنديا خرج مهزوما من حرب لم يختر دخولها.

تأملته، أفهمه الآن تماما، بقلبه الطيب، وروحه الطفولية المؤذية، لو وقفت أمامه الآن وقلت له أنت السبب في كل ما تلومني عليه الآن من حياتي الممزقة، سيرفع حاجبيه من الدهشة ويقول باستنكار:

- أنا؟

فكرت للحظة، لو كان إبهام أبي قد بتر مبكرا، فربما كان قد رحمني من ضربه المبرح صغيرا، وربما أصبحت شخصا آخر، لمت نفسي، وربّتُّ كتفه، فنظر لي بحب، فابتسمت بمرارة أدركها، فأشاح بوجهه، وجلس يدندن أغنية فات الميعاد لأم كلثوم بصوت منخفض، رفعه وهو يجوّد في مقطع:

"والزمن بينسي فرح وحزن ياما"

في يوم خروج أبي من المستشفى سمعني وأنا أؤجل موعد اجتماع مهم بالجريدة، فأشار لي بيده بمعنى أنه سيذهب بمفرده، أغلقت الهاتف وقلت له إنني سأوصله إلى البيت لكنه قال ببساطته الأبدية:

- الحق شغلك.

أركبته تاكسيا، وحاسبت السائق.

تحركت السيارة فاستدار أبي ولوّح لي بيده السليمة، فلوّحت له بقلق أربكني، شعرت بأنه ابني.

وضعت يدي في جيبي، وأخرجت منه لفافة بيضاء قطنية. نظرت لها دون أن أجرؤ على فتحها، غادر أبي ملوحا بابتسامة، تاركا إصبعه في قلبي.

1419120000 ثانية

- 1 -

تقضي فيروز يوم العمل مع الدكتور ميخائيل بشكل آلي وتعود. اليوم عيد ميلادها، تقف أمام المرآة تتأمل الشعر الأبيض الذي تسلل إلى رأسها، تفرد التجاعيد الخفيفة التي احتلت ملامحها، أسفل العينين، في الجبهة، على جانبي الخدين، بجوار زاويتي الفم، في الرقبة، ربع أسنانها تركيبات من البورسلين، نفس النوع الذي تصنع منه الأرضيات الفاخرة، التدخين الغزير طوال 30 عاما طلى أسنانها باللون الأصفر الذي لا يمكن رده إلى أصله، 30 عاما في متوسط 20 سيجارة يوميا، جرت إلى الموبايل وحسبتها:

30 سنة X 365 يوما = 10950 يوما

10950 يوما X 20 سيجارة = 219 ألف سيجارة.

أعجبتها اللعبة، قررت حساب عمرها بالأيام:

45 سنة X 365 يوما = 16 ألفا و425 يوما

وبالساعات:

16425 يوما X 24 ساعة = 394 ألفا و200 ساعة.

وبالدقائق:

394200 ساعة X 60 دقيقة = 23 مليونا و652 ألف دقيقة.

وبالثواني:

23652000 X 60 ثانية = 1419120000 ثانية.

لم تتمكن من قراءة الرقم فتوقفت، حاولت أن تقسّم عمرها الطويل إلى أوقات سعيدة وأوقات حزينة ففشلت، هربت منها ذاكرتها، كل ما تبقى لديها منها حوالي 10 جيجا بايت على هارد اللاب توب، بها بعض الصور والفيديو والتسجيلات التي لم تخترها، تفكر أن هذه الأشياء لو ضاعت أو فسدت لأي سبب، فستفقد كل علاقة لها بذكرياتها.

تعود إلى المرآة مرة أخرى، لا تنظر إلى وجهها مباشرة، ثم تفاجئ نفسها بنظرة سريعة، تشعر بغربة تامة عن هذه المرأة التي تراها بالداخل، امرأة على وشك أن تصبح مسنة، وحيدة، بائسة، تدخن من عمر 15 عاما، هاجرت ابنتها إلى بلد لا تعرف شكله، تأكل وتشرب من فوائد وديعة في البنك تقل قيمتها يوميا، لتهددها بأنها إذا تقدم بها العمر فلن تجد ما تأكل منه.

هل حدث كل هذا حقا؟ هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ هل عاشت؟ هل أتت إلى الحياة أصلا؟ تفاجئها المرأة في المرآة بنظرة غامضة، كل صورها وهي صغيرة ثم وهي شابة تؤكد أن جمالها لن يغادرها، تبتسم، تقطب جبينها، تصطنع الغضب، ثم الفرح، ثم الدهشة، تتناول أدوات الزينة المرصوصة أمامها، تنظر إلى تاريخ الصلاحية أسفل كل عبوة،

فتجده قد انتهى منذ فترة، لا تهتم، تبدأ في تلوين وجهها، كريم أساس، أخضر فوق العينين، مسكرة سوداء، أبيض تحت العينين لإخفاء الهالات السوداء من قلة النوم والتجاعيد، بالفرشاة تلون خديها وذقنها وجبهتها بالوردي، تضع طلاء شفاه أحمر قاتما، تتأمل شكلها فلا يعجبها، تضع أكثر، وأكثر، تصور نفسها في المرآة بالموبايل، وتنقل الصور إلى اللاب توب، فلا تعجبها، تصور نفسها مرة أخرى، تتصنع الابتسام، تغير من تسريحة شعرها، تنقل الصور، فلا تعجبها، تقف أمام المرآة، تمد يدها وتمسح وجهها، فتختلط الألوان، يبدو وجهها منفخا، تصوّر نفسها أكثر من 20 صورة، وتنقلها إلى اللاب توب بعد أن تمسح الصور الأولى، تضعها في فولدر تكتب عليه: فيروز الجديدة.

- 2 -

تضع التورتة وسط المنضدة، وتغرس في وسطها شمعة واحدة، لها خمس سنين لم تحتفل بعيد ميلادها.

منذ طفولتها ويوم ميلادها مقدس عند كل من يعرفها، فرصة مناسبة لإعلان مشاعر جديدة، أو التقرب، أو لصلح تأخر، دولابها مليء بهدايا ثمينة، ملصق عليها من القاعدة اسم صاحبها، والتاريخ 4/ 10، مع اختلاف العام.

قبل أن تشعل الكبريت وتقربه من الشمعة وقفت قليلا، نظرت إلى الشمعة الوحيدة المزروعة في نقطة المنتصف تمامًا بين الشوكولاتة والفانيليا، منذ تخطت الثلاثين وهي تضع شمعة واحدة، قبلها كانت تضع رقمين متجاورين يدلان على عمرها: 25، 26، 27، 28، 29، تحب

هـذا، فقد أنجبـت وعمرها 20 عامًـا، وحين أتمت الـ26، كان من يراها يعتقـد أنهـا لم تتـزوج بعد، وحين تخبـره أن لديهـا بنتًا عمرها 6 سـنين، وفي أولى ابتدائي يندهش، فتفرح كثيرا بنظرة الدهشـة في عينه، وتعجبها مشـاعر الغيرة في عيون النساء، تضع الرقمين متجاورين في التورتة: كذا وعشرين، وتحمل ابنتها وتجعلها هي التي تطفئ الشمع:

Happy birthday to you

Happy birthday to you

Happy birthday to you

Happy birthday to you

سنة حلوة يا جميل

سنة حلوة يا جميل

سنة حلوة يا فيروز

سنة حلوة يا جميل

تتوجـه إلـى النيش، وتخـرج منه 4 ألبومات صـور، ألبوم كامل منها لصـور أعيـاد ميلادهـا المتتالية، تمسـك الألبومـات واحدا تلـو الآخر، تخرج الصور، وتفرشـها على طاولة السـفرة حـول التورتة، تضع صورة ابنتها وزوجها بجوار التورتة مباشرة، وتضيء الشمع.

تدخـل غرفـة النـوم، تمكث قليلا وتعـود، كان زوجهـا يجذبها من يديها وسـط الحفل ويقبلها بالداخل، ويمنحها في البداية هديتها السرية،

قطعا مختلفة الأشكال والألوان من ملابس النوم، قبل أن يخرج ويمنحها هديتها المعلنة أمام الجميع.

تفتح الدولاب وتخرج كل ملابسها الداخلية، تفردها على السرير وعلى أرضية غرفة النوم، يعجبها كرنفال الألوان الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء والبنية والسماوية فتبتسم، وتغني:

سنة حلوة يا جميل..

سنة حلوة يا جميل.

تدور في الشقة كلها تتأكد من أن النوافذ مغلقة، تضغط على مفتاح الباب لتتأكد من إغلاقه جيدًا، ثم تعود إلى الصالة، تخرج كيس الشمع من النيش، تمسكه وتجلس على الأرض، تخرج شمعة شمعة، وتعد بصوت مرتفع:

- 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 19، 20 ،21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 44، 45.

تمسك الخمس وأربعين شمعة بكلتا يديها، ثم تضعها على المنضدة بجوار التورتة، تنزع الشمعة الوحيدة، تطفئها وتلقيها في السلة.

تبدأ في زرع الـ45 شمعة في التورتة، واحدة في الشوكولاتة، وواحدة في الفانيليا، واحدة في الشوكولاتة، وواحدة في الفانيليا، تبدأ من الداخل حتى ينتهي الشمع على الحواف، فتبدأ في إشعاله بنفس الترتيب، واحدة، وواحدة، وفي النهاية تشعل سيجارة وتسحب منها نفسًا عميقًا، وتتركها

على الطفاية، تتوجه إلى أشرطة الفيديو في النيش، تخرجها كلها وتضعها على الأرض، تأخذ شريط فيديو عيد ميلادها السابع والثلاثين، تضعه في جهاز الفيديو القديم الذي مازال يعمل بكفاءة، كانت جميلة بعد أن قصت شعرها، وصبغته بالأحمر وأنقصت من وزنها 14 كيلو جراما.

وضعت فوطة على شاشة التلفزيون، ورفعت الصوت حتى آخره، تلعب مع نفسها لعبة تمييز الأصوات، في الخلفية كانت أغنية عيد ميلاد أبو الفصاد عالية، تتخللها أصوات ضحك ونداءات وتهانٍ كلها تحمل اسمها.

شعرت أن اللعبة لا داعي لها، فهي لا تنجح فقط في تمييز الأصوات، بل تعرف من سيقول ماذا بعد قليل.

وقفت أمام التورتة، وأحضرت الكثير من الأكواب والكؤوس ورصتها في دائرة حول التورتة، ثم أوقفت كل الصور على المنضدة وأسندت كلا منها بكوب أو كأس، بحيث صارت الصور كلها واقفة حول التورتة، كان الصوت في الفيديو يقول:

- أطفئوا الأنوار.. أطفئوا الأنوار.

جرت بسرعة إلى مفاتيح أنوار الشقة كلها، وأغلقتها، ثم عادت وهي تنهج، والأصوات في الفيديو تناديها:

- فيروز.. فيروز.

Happy birthday to you

Happy birthday to you

سنة حلوة يا جميل

صوت زوجها:

- هيا يا فيروز أطفئي الشمع.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.

اقتربت من الشموع الكثيرة في التورتة، أمسكت بها واحدة بعد الأخرى، بادئة بنصف الشوكولاتة، تسحب الشمعة المشتعلة من التورتة، ثم تقلبها وتغرز الطرف المشتعل في نفس الفراغ، انتهت منها جميعًا، الشقة مظلمة تمامًا، فيما عدا ضوء خافت يتسلل من الفوطة الموضوعة على شاشة التليفزيون، أمسكت الريموت وأطفأت التليفزيون، حتى صارت الشقة ظلامًا دامسًا، فنزلت أسفل الطاولة، تكومت على نفسها، ونامت.

- 3 -

امرأة الميزان:

تتميز المرأة الميزان بالأناقة والنعومة، شخصيتها فولاذية صلبة، واثقة من نفسها وآرائها، مستواها التعليمي عال وثقافتها راقية، تفضل الجمال في كل شيء، تحب العمل قبل الزواج وبعده، حذرة، لا تثق في الآخرين بسرعة، وتهمها العلاقات عميقة الجذور.

ليست من النوع الضعيف، لديها من الحماسة والاندفاع الفكري ما يظهر حبها للأمور الفلسفية والنظريات الجمالية، هذه المرأة تترجم

عفويا التناقض الحاصل بين مظهرها وحقيقتها، يمكن أن تحل مكان الرجل في غيابه، تملك قوة الإرادة ورجاحة العقل، ولا يستخفها طيش الشباب، لكنها تحب العيش في الماضي، وتقدس الذكريات.

قلب المرأة الميزان مرتبط بالجمال، تهتم للمظهر الخارجي لشخص الحبيب، قدرتها على إخفاء مشاعرها واضحة، وتساند حبيبها وتحميه بشراسة وقوة عند اللزوم.

من مشاهير الميزان:

بريجيت باردو، سارا برنار، مارجريت تاتشر، كيت وينسيلت، مونيكا بيلوتشي، شمس البارودي، شيرين عبد الوهاب، روبي.

ليت بسنت تعرف

- 1 -

أدمنت ترك السيارة، والسير من المهندسين إلى وسط البلد في الأيام الأخيرة للقاء بسنت على المقهى، أحيانا يرافقني زوج فيروز، ندخن معا، اليوم أخبرته أن الحياة صعبة بلا داع، شرحت له أنني لم أكن أرغب سوى في حياة أقل تعقيدا أقضيها مع بسنت نتسكع في شوارع القاهرة الهادئة بعد منتصف الليل، وأيام العطلات الرسمية، وأنني شخص مسالم ليس له أي أطماع أو رغبات سوى حياة بسيطة بها أغنيات جميلة، وسينما مبهجة، وجلسات مريحة على مقهى يغش البن ليحقق صاحبه البائس أرباحا هزيلة، حياة أصلح فيها كل أخطائي، يمكنني فيها أن أولد من جديد كلما شعرت بأنني أريد الرجوع إلى الوراء.

لم يحب زوج فيروز طريقة تفكيري، أخبرني أنه يمكن دائما التخطيط للبداية من جديد كما فعل هو.

اتصلت بي أمي، سألتني عن أحوالي، وتحدثت طويلا عن عصبية أبي التي زادت بعد العملية، ثم سألتني عما فعلته بإصبعه، فأخبرتها أنني توجهت إلى مقابر السيدة عائشة، وكانت هناك جنازة فأعطيته للتربي ليدفنه مع الميت.

اتصلت بي دينا أكثر من مرة وأنا أسير باتجاه المقهى حيث تنتظرني بسنت فلم أرد عليها، لكنها ألحت في الاتصال فوقفت بعيدا عن المقهى بحوالي خمسين مترا ورددت عليها، كانت تكلمني بعصبية حول غيابي ووضعنا الملتبس وكرمة، وأنا أدرك أن كل ما تتفوه به حقيقي، وأنها محقة ومظلومة، حاولت السيطرة على أعصابي، قلت لنفسي إنها لا ذنب لها في تقلب مشاعري، وإنها كانت تجلس في بيت أهلها آمنة مطمئنة وأنا الذي طرقت بابهم وطلبت يدها، لأنقلها من وضعها كأميرة مدللة ليس في حياتها سوى الحب والاهتمام، إلى حياة سوداء مؤذية مدمرة بسبب اضطراباتي.

واصلت دينا كلامها بحدة فزعقت فيها، فبكت، فغيّرت حالتي تماما، توترت وأغلقت الخط في وجهها، ثم اتصلت بي فيروز تسألني عن موعد لقائنا المقبل، وبسنت تتصل في نفس اللحظة على الانتظار ويبدو أنها رأتني من مكان جلوسها على المقهى، أغلقتُ التليفون وتوجهت إليها فتشاجرت معي لأنني تأخرت عليها نصف ساعة من أجل التليفون، وشكّت في أنني أقابل فتاة أخرى، وألمحت إلى بنت تراها تتابع كل منشوراتي على فيس بوك، وتضع إعجابات منتظمة على كل ما أكتب، وحين أقسمت لها بأني لا أعرفها أصرت أن أفتح التليفون لترى اسم من كان يحادثني، رفضت وأخذتني العزة برجولتي، خطبت فيها خطبة عصماء عن أنها يجب أن تثق في نفسها وفيّ، وأنه لا شيء يجبرني على لقائها إذا لم أكن أحبها، لم أكن أريد أن ترى مكالمتي مع فيروز، لكنها أصرت، فرفضت بشدة أكبر، قامت مسرعة وانصرفت، قمت خلفها،

لكن القهوجي استوقفني من أجل حساب مشروبها، فوقفت وحاسبته وحين جريت وراءها وجدتها استقلت تاكسيا، وانصرفت.

سرت في الشارع بلا هدف، قابلني متسوّل لحوح، مدّ يده القذرة لي مصافحا فصافحته باشمئزاز حاولت إخفاءه، لكنه ظل يلح ويدور حولي حتى فوجئت بنفسي أدفعه بقوة كادت تسقطه أرضا، فانقلب مجنونا يرميني بالحجارة، تعجبت من رد فعلي وواصلت السير، عبرت الطريق دون اهتمام بإشارة المرور، كادت إحدى السيارات أن تصدمني فتبادلت مع سائقها سبابا بذيئا، وفكرت أن حياتي أشبه بحرب مستمرة لطواحين هواء، وأن حياة فيروز التي ترويها لي بها تحولات درامية لها معنى أفضل كثيرا من حياتي الخاوية، وفكرت أن تدخلاتي بالحذف والإضافة والخيال في حكاياتها ربما تفسدها، سبَبْتُها في سري هي وحكايتها.

حاولت الاتصال بـ"بسنت" أكثر من مرة فلم ترد، فأرسلت لها رسالة نصية: أنا أحبك.. وليس لي غيرك، فلم ترد.

قررت العودة للسيارة في المهندسين، ركبت ميكروباصا من طلعة كوبري أكتوبر، وجلست إلى جوار سائق يبدو أنه تحت تأثير مخدر ما، يشغل أغنية شعبية بصوت عال:

محدش عنده ضحكة سلف أداري دموعي جواها

نزلت من الميكروباص وركبت سيارتي، وبمجرد أن أدرت المحرك، أنارت لمبة البنزين في تابلوه السيارة مجددا، تذكرت أنني سرت طويلا بها وهي مضاءة، ثم رنّ هاتفي باسم حماي، فكرت ألا أرد، وأنني لست

في حالة يمكنني تحمله فيها، ثم رددت بعد التردد، فجاءني صوته قويا كعادته، كعسكري سابق، طلب مني أن أقابله، فتحججت بانشغالي، فسب الثورة والثوار على اعتبار أنني منهم، وقال إن كل واحد فيهم يتخيل أنه يحرر البلد في حين أنه فاشل في حياته الشخصية، اتفقنا على أن أقابله مساء الغد خارج البيت، وختم المكالمة بسب الثورة والثوار مرة أخرى كما يفعل دائما في الفترة الأخيرة، فكرت أن أكتب فصلا عنه في الرواية، ثم شعرت بإحباط، قلت لنفسي إنني ربما لا أجيد كتابة الروايات، فقررت أن أشتري مجموعة كتب من نوعية: كيف تكتب رواية، ثم شعرت ببؤس الفكرة، قدت السيارة حتى محطة البنزين فوجدت طابورا طويلا من السيارات ينتظرون دورهم قبلي، وأخبرني أحدهم بوجود أزمة وقود، وقفت في الطابور، وشغلت الراديو من السيارة على نشرة أخبار تتحدث عن تشديدات أمنية ومظاهرات للإسلاميين، أطفأت الراديو، ورن هاتفي بنغمة رسالة، توقعت أنها رد من بسنت لكنها كانت رسالة إخبارية، أطفأت الموبايل، ووقفت في انتظار دوري في طابور الوقود، شعرت بالجوع، وبالرغبة في النوم، نمت في مكاني في السيارة، وحلمت بأنني عريس في زفة كبيرة، وبجواري عروس في فستان أبيض جميل وعلى رأسها طرحة بيضاء لا تُظهر وجهها، سارت الزفة حتى أجلسونا في كوشة جميلة، مددت يدي لأرفع الطرحة عن وجه العروس، فإذا بها فيروز، تعالت أصوات طرقات في حفل الزفاف لم أعرف مصدرها إلا حين فتحت عيني فوجدت شخصا يطرق على زجاج سيارتي يطلب مني أن أتحرك بالسيارة حتى لا أعطل الطابور، حاولت إدارة المحرك لكن

يبدو أن البنزين قد نفد من السيارة، تعاون معي عدد من المواطنين في دفع السيارة، شعرت بالامتنان لهم، لدرجة أنني تمنيت وجود أشخاص مثلهم في حياتي المعطلة يدفعونها إلى الأمام.

- 2 -

لا أحب السياسة، ولا أحب اشتباك مهنتي التي لم أخترها بها، لماذا أنا هنا في هذا البلد؟ في هذا التوقيت؟ في هذه المهنة؟ ما ذنبي الذي أكفر عنه بانخراطي في كل هذا الدم والخراء؟ جلست مع والد دينا وهو يحاول أن يقنعني بالليـن والعقل تارة وبالتهديد والوعيد تارة أخرى أن أعيد المياه إلى مجاريها بيني وبين ابنته، من أجل كرمة على الأقل.

سألني: هل تطوِّل لسانها عليك؟ هل تقصر في أعمال البيت؟ هل تطول يدها عليك؟ هل هي غير نظيفة؟ هل تذكر أهلك بسوء؟ وحين أجيب بالنفي يتملكه الغضب والجنون أكثر، يريد مني أن أضع يده على مشكلة لا أضع أنا شخصيا يدي عليها، انحرف عن الحديث ليسب الثورة والثوار، تكلم كلاما منطقيا كثيرا عن أن الثوار فشلة ملعوب بهم، وأن الأمر كله مسرحية مرتبة ومرسومة مسبقا، وأن هؤلاء الحمقى لن يمسكوا أي مسمار في البلد، اتهمته بمناصرة الأنظمة الفاسدة، وكلمته برعونة عن المستقبل المشرق، والثورة التي ستغير وجه مصر، احتدم النقاش بيننا، فقلت له إن الأيام ستثبت من فينا على صواب، وإنه لا أحد يعرف ما سترتبه الأيام، عاد إلى الموضوع الأساسي، وخيرني في أمر دينا بآية قرآنية: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، طلب مني قرارا، ولم يحدد مهلة، ودفع الحساب وقام.

ظللت مكاني أفكر في أنني لا أملك قرارا، هل أرغب فعلا في تطليق دينا؟ هل يفترض بي اتخاذ قرار يحرمني من نموّ ابنتي أمامي ويحرمها مني؟ هل ستسامحني حين تكبر؟ وما ذنب دينا نفسها؟ أنا لا أقيم معهما حاليا لكنني لم أطلقها رسميا، ربما أعود، جزء بداخلي يحب دينا، ولا أحب أن تذهب لرجل آخر، هل تذهب كرمة أيضا إلى رجل آخر؟.. شعرت بنفسي واقفا في وسط صحراء، رن هاتفي بمكالمة من بسنت كأنما تمد لي يدا لا أعرف هل تنتشلني مما أنا فيه، أم أنها تغرسني فيه أكثر، أخبرتني أنها ستنتظرني اليوم على المقهى مساء، سألتها بمزاح إن كانت قد صفحت عني، فضحكتْ ضحكة تعني انتهاء الشبورة العابرة، قالت:

- سأفكر.

التقينا مساء، حكيت لها كل ما حدث، فهزت رأسها بلامبالاة كأنها لا تريد أن تؤثر في قراري، وهي تريد طبعا، قالت:

- أنت من تحيِّر نفسك.

حكت لي عن ابن خالتها الذي يريد الزواج بها، فمزحت معها إن كانت هذه حيلة لدفعي للزواج بها، فضربتني في كتفي وقالت إنني حتى لو توسلت لها فلن توافق، وإن ابن خالتها مجنون، وإنه لو كان آخر رجل في العالم فلن تتزوجه.

الذهبية لتصليح الساعات

- 1 -

ينقطع النور فجأة، فتخرج الموبايل، وتطلب رقمًا عشوائيًا:

- مساء الخير.

- مساء النور.

- أنا فيروز.

- أهلا وسهلاً بحضرتك.

- أهلا بك.

أنا أسكن بمفردي.. والنور انقطع عليّ فجأة.

- يا نهار أبيض.. نورك يكفي ويزيد.. أكيد صاحبة هذا الصوت جميلة وقمر ومنورة.

- نعم؟

- أنا مهندس صوت.. وصوتك الجميل لا يحتاج هندسة.. أنا اسمي حسين يا قمر؟

فجأة يعود النور مرة أخرى، فتغلق الخط.

ظل رقم حسين يتصل عدة مرات وهي تضغط على زر الإغلاق كل مرة، فأرسل لها رسالة: نتكلم.. ربما ينقطع النور مرة أخرى. لم ترد، ولم يحاول هو الاتصال مرة أخرى.

- 2 -

في هذه الليلة زارتها نادية في المنام.

في الصف الثاني الإعدادي جلست فيروز في الفصل ترسم لوحة طلبها منها مدرس العلوم لفصل آخر، لأنها كانت مشهورة في المدرسة كلها بإجادة الرسم، فجأة وقفت نادية بجوارها وسألتها:

- أنت فيروز؟

- نعم.

- ماذا تفعلين.

- أرسم لوحة.

- ماذا بها.

- أرسم خالتي مريم، لأنها ماتت ولا أملك أي صورة لها.. لكنني أعرف ملامحها جيدا.

- كيف؟

- تشبه فاتن حمامة في فيلم قديم.. بالأبيض والأسود.

- وهل ترسمينها بالألوان.

- نعم.

- أي ألوان؟

- أخطط بالأسود، وألوّن بالأحمر والأخضر والأصفر.

- كيف يبدو الأحمر؟

تحيرت كيف ترد عليها، ثم قالت:

- الأحمر مثل النار، أكثر لون يمكن أن تشعري بسخونته.

- والأخضر؟

- الأخضر مثل طعم البطاطس.

- والأصفر؟

- كشخص يحتضنك.

- وباقي الألوان؟

- الأبيض مثل صوت أسمهان.. تعرفينها؟

- أحبها.

- والبني مثل ملمس الخشب الناعم، والبرتقالي مثل طعم البرتقال بالضبط.

- وأنا ما لوني؟

- أنتِ بيضاء وشعرك أسود.

انسحبت نادية من مكانها، وعادت إلى مقعدها في الدكة الأخيرة تتحسس طريقها.

فيروز تشفق عليها لكن تخشى الاقتراب منها، عيناها جاحظتان جدا وتدوران بشكل مستمر وعشوائي، كل البنات يبتعدن عنها، توصلها أمها إلى باب الفصل صباحا، فتجلس بمفردها تنتظر صعود الطابور، ثم تأتي لتأخذها قبل انتهاء اليوم الدراسي بدقائق، قبل زحام الخروج. أحيانا بين الحصص ترتمي على الأرض وتتشنج ويتعرى فخذها الأبيض، فيغطيها بالكراريس، وبعد أن تنتهي يحملنها ويرجعنها إلى مكانها.

هذه هي المرة الأولى التي تكلمها نادية فيها، وفي المرة الثانية سألتها:

- الرسم حلو؟

- جدا.

- هل يمكنك أن ترسمي الجنة؟

- لا.

- لماذا؟

- لم ير أحد الجنة.

- أنا رأيتها.. لكنني لا أجيد الرسم.

بعدها بأسبوعين صعدت نادية إلى الطابق الأخير في المدرسة، رغم أن فصلها كان في الطابق الثاني، وألقت بنفسها، ظلت يومين في المستشفى ثم ماتت.

أتت أمها إلى المدرسة بعدها بأسبوع وسألت:

- أين فيروز الرسامة؟

خرجت لها فيروز فأعطتها ساعة ابنتها، كانت تراها وهي تفتح زجاجها، ثم تمد أطراف أناملها تتحسس عقاربها البارزة حتى تتعرف على الوقت. قالت الأم:

- الله يرحمها، أوصتني قبل موتها أن أعطيك هذه الساعة.

زارتها نادية في المنام بنفس هيئتها، وقفت أمامها وسألتها:

- كيف يبدو الأحمر؟

لم ترد فيروز، فضحكت نادية:

- نسيتني؟ لا يهم.. لكن انهضي وأصلحي الساعات، يمر الوقت أسرع حين تكون الساعات معطلة.

قامت فيروز من نومها، أسرعت إلى الثلاجة، فتحتها وشربت نصف زجاجة ماء، ثم توجهت إلى الدولاب، أخرجت حقيبة قديمة وأخرجت منها 10 ساعات يد واقفة، فردتها أمامها على الأرض، ثم أنزلت ساعات الحائط الأربعة ووضعتها بجوارها.

أمسكت تليفونها وطلبت رقما عشوائيا، فسمعت كول تون: طلع البدر علينا، ثم رد عليها صوت رجل:

- السلام عليكم.

- صباح الخير.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، من حضرتك يا أخت؟

- أريد أن أسألك.. هل تعرف أحدا يصلح ساعات؟

- من حضرتك يا أخت؟

- لا يهم من أنا.. حضرتك تعرف أم لا؟

- لله الأمر من قبل ومن بعد، أعرف واحدا في ميدان المحطة.

- أي ميدان محطة؟ حضرتك من أين؟

- أنا من إيتاي البارود يا أخت.

تغلق السكة، وتتصل برقم آخر، فيرد عليها صوت رجل يبدو مسنا:

- صباح الخير.

- صباح النور يا حاج.. هل تعرف أحدا يصلح ساعات؟

- كلهم في العتبة يصلحون الساعات.

- شكرا.

أغلقت الخط، وضعت الساعات كلها في حقيبة أكبر، وارتدت ملابسها، حملت الحقيبة وخرجت من الشقة وقررت أن تركب تاكسيا حتى ميدان العتبة.

بمجرد أن نزلت وخرجت من باب العمارة، وجدت في مقابلها محلا صغيرا مكتوبا عليه: الذهبية لتصليح الساعات، تعجبت وتوجهت إليه.

كل جدرانه مكسوة بساعات من أحجام وماركات وأشكال مختلفة، وليس به أي مقاعد سوى مقعد في نهايته يجلس عليه رجل طاعن في

السن، أمامه منضدة عليها مئات من ساعات اليد، وقد وضع العدسة الشهيرة على عينه وربطها حول رأسه بأستك قديم.

تأملت الساعات حولها، كلها مضبوطة على نفس الثانية، لدرجة أنها جميعا كانت تصدر: تك، تك، تك، في وقت واحد دون أي تفاوت.

- صباح الخير.

رفع الرجل رأسه عن الساعة التي كان يصلحها:

- صباح النور.

- محل حضرتك فاتح من فترة؟

- من 63 سنة وشهرين.. لكن قبلها كنت في أماكن أخرى كثيرة.

- غريبة، أنا أسكن هنا في العمارة المقابلة من سنين طويلة، وهذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها هذا المحل.

- أنا أراك دائما، مواعيدك ليست مضبوطة، وتبدين كما لو كنت متعجلة، رغم أنك بطيئة جدا.

- نعم؟

- أنا أعمل في هذه المهنة منذ زمن، أنا الذي أضبط ساعة الجامعة، وكل هؤلاء الناس الذين ترينهم أنا الذي أحدد لهم ماذا يفعلون ومتى، زوجك مثلا، يقف حالا في إشارة مرور بحي العجوزة أمام مسرح البالون، وبعد أسبوع سيقف في الإشارة المزدحمة على الكورنيش

قبل المظلات، وبعد ثمانية أشهر سيقف في إشارة محطة الرمل في الإسكندرية.

- ماذا تقول؟ أنت مجنون؟

- لا، لكن كل شيء له وقت محدد، وأنا شغلي الوقت.

نظرت له بريبة.

- أريد أن أصلح هذه الساعات.

وأشارت إلى الحقيبة.

- أخرجيها.

أخرجتها، فمد يده وتناولها منها، تفحصها، ثم قال:

- ناقص واحدة.

- نعم؟

- ناقص واحدة.

نظرت إليه بريبة، ثم نظرت في الحقيبة فوجدت إحدى الساعات في قاعها، أخرجتها وأعطتها له.

فتح الساعات كلها أمامه، تفحصها ثم أغلقها، وأعادها إلى الحقيبة:

- سأصلحها.

- كم تريد؟

- أنا لا آخذ نقودا.

- ماذا تريد؟

- سآخذ ساعة منها.

- لا طبعا، كلها ساعات غالية وماركات، وكلها هدايا أتت لي في مناسبات مهمة.

لوح لها بيده في عدم اهتمام كأنه يصرفها.

- كما تشائين.

- وهل تظن أنك الوحيد في العالم؟ كلهم في العتبة يصلحون الساعات.

وضع العدسة على عينه مرة أخرى، وتشاغل عنها بإصلاح الساعة التي كانت في يده.

جذبت الحقيبة من أمامه وخرجت.

سارت خمس خطوات، ورجعت مرة أخرى، قال لها دون أن يرفع عينيه:

- ضعيهم هنا.

وأشار إلى نفس المكان الذي كانت فيه الحقيبة، وأكمل:

- سآخذ ساعة نادية.. وحين تحتاجين إلى باقي الساعات تعالي.

- 3 -

خرجت فيروز وشعرت أنها أصبحت تسبح خارج الزمن، ولم تعد إلى محل الذهبية لتصليح الساعات مرة أخرى أبدا.

كذب بثلاث أرجل

- 1 -

لم تحب فيروز تحريفي لقصة رجل الساعات التي حكتها لي بطريقة مختلفة، فقررت ألا أريها ما أكتب ثانية، لا شيء هنا يشبه بأي حال ما حكته لي، فكّرت أن أزعق فيها وأشرح لها أنني أكتب رواية ولست كاتبا مأجورا أكتب يومياتها أو مذكراتها، ثم تراجعتُ حتى لا أخسرها، عليها أن تقرأ الرواية مطبوعة كأي قارئ حتى لو كانت بطلة الرواية، هكذا يفعل الروائيون المحترفون.

تعقدت الأمور سريعا دون إنذار.

بعد يوم عمل طويل نزلت من الجريدة مسرعا لألتقي بسنت حريصا على ألا أتأخر عليها، ككل مرة، لأجد دينا تنتظرني في الشارع بجوار السيارة، سلمتُ عليها فلم ترد، دخلنا السيارة فانفجرت في البكاء، حاولت تهدئتها دون فائدة، وبعد بكاء طويل و4 مكالمات لم أرد عليها من بسنت أجبرتني على تحويل الهاتف إلى الوضع الصامت، قالت لي دينا إنها تحبني رغم كل ما حدث، وإنها لم تحب أحدا في حياتها سواي، وإن عينيها وقلبها تفتحا عليّ، ولا تتصور نفسها في أي مكان في العالم إلا بجواري وفي حضني، حاولت تهدئتها بكلمات من نوعية:

اهدئي طيب.. لم يحدث شيء.. وأنا أيضا، إلا أنها انفجرت مرة أخرى في البكاء، كلمتني عن كرمة، فتحت هاتفها المحمول وأرتني الصور الأخيرة للبنت، وكم هي جميلة، ذكّرتني بحبنا أول الزواج، وبكل كلامي ووعودي لها، وسألتني إذا كانت هي قد هانت عليّ، فهل هانت كرمة؟ ثم انفجرت في نوبة بكاء جديدة، وبسنت تواصل الاتصال دون توقف على هاتفي.

طلبت مني دينا أن نذهب إلى أي مكان لنجلس ونتكلم، فأخبرتها بأن لديّ موعد عمل مهم ولن أتمكن من البقاء معها طويلا، بكت للمرة الثالثة وتكلمت بانكسار، قالت لي إن أباها قابلني على غير رغبتها، وإنها لا تريد مني أن أرجع لها من أجل كلام أبيها، ولا حتى من أجل البنت، لكنها تريد مني أن أرجع حين أشعر أنني أحتاج إليها وأحبها كما تحتاج إليّ وتحبني.

قلت لها إنني أحبها، فقالت إنها على علم بأن هناك أخرى في حياتي، وإن أحد أقاربها رآني وأنا أمسك يد هذه البنت في وسط البلد، حاولت الكذب عليها لكن صوت بكائها كان أعلى من صوت كذبي، فتحتْ باب السيارة ونزلتْ مسرعة وأنا لم أتحرك خلفها، ولم أفتح حتى بابي، تركتها تنصرف، كأنها ليست زوجتي، ولا أم ابنتي.

رددت على المكالمة العشرين لبسنت وأخبرتها أن عجلة السيارة نامت واضطررت لتغييرها، وأن الموبايل سايلنت وشعرت بأنني أكذب أكثر من اللازم لرجل في مثل سني.

لامتني بسنت كما تفعل دائما، وقالت لي إنها انصرفت، وأغلقت.

وقفت حائرا، ووقف زوج فيروز بجواري صامتا يدخن، سألته: هل أتصل بدينا وألحق بها لنجلس كما كانت تريد، أو على الأقل لأوصلها؟ أم أذهب إلى تحت بيت بسنت أنتظرها وأصالحها؟ أم أذهب إلى البيت لأواصل الكتابة في الرواية.

اصطحبني زوج فيروز من يدي حتى وجدت نفسي في النهاية في المصعد عائدا إلى مكتبي في الجريدة رغم أنني أنهيت عملي وليس لديّ شيء أفعله.

- 2 -

دخلت على اليوتيوب وبحثت عن فيلم إسماعيل يس في الجيش، جلست أشاهده دون أن أضحك ضحكة واحدة، حتى اقتحم عليّ المكتب ثلاثة من زملاء الجريدة، محمود سمير رئيس قسم الفن، وزكي عبود المسئول عن أخبار النقابات العمالية، ويسري فوتو شوب المصور، واقترحوا أن نخرج لتناول الطعام معا، حاولت التهرب منهم والتعلل بأنني يجب أن أرجع للبيت مبكرا لأنني بصدد كتابة رواية، فمازحوني وهوّلوا الأمر، قالوا إنه يبدو أنني قررت أن أصبح نجيب محفوظ الجديد، وإنني أتكبر عليهم من الآن، وورّطوني في دعوتهم على الطعام ودفع الحساب حلاوة الرواية الجديدة.

ذهبنا إلى مسمط حبايب السيدة، بالغوا في الطلبات بما أنني أنا الذي سيدفع، لم أعترض، وحكى كل منهم عن محاولاته لكتابة القصص القصيرة والشعر والرواية، وإجهاض أحلامهم الأدبية على عتبة الصحافة، ثم تطرقوا لنميمة الصحفيين، حول المحررات الجميلات اللاتي يظهرن

في الجريدة فجأة ويصبحن شبه مقيمات في مكتب رئيس التحرير، وتُنشر لهن موضوعات رديئة في الصفحات المهمة ثم يختفين فجأة من حيث أتين، وحول طبّالي المهنة التي أصبحت كلها تسير في اتجاه واحد يحركها مايسترو خفي، وحول احتمال الاستغناء عن رئيس التحرير الحالي لتورطه في فساد مالي، ولأنه لم يعد يرضي الكبار، لم أرد عليهم لأخبرهم بأنهم هم أيضا يسبحون مع تيار التطبيل ويتبارون فيه بحجة أكل العيال.

لم أتخلص من الملل، رغم نكاتهم اللطيفة، انتهينا ودفعت تقريبا ما يوازي ربع مرتبي على طلباتهم الشبقة، اقترحوا أن نجلس على المقهى لتدخين الشيشة، وعرض أحدهم وهو يضحك أن يدفع حساب المقهى، لأنني لو دفعت قرشا آخر، سألعنهم وألعن الرواية، والصحافة، واليوم الذي عرفتهم فيه.

حاولت مع دخان الشيشة أن أجاريهم في نميمتهم، لكنني شعرت أنني بمعزل عنهم، لم أكن يوما مهتما بالصحافة، ولم أعتبرها مهنة البحث عن المتاعب، ولا أرى في الأمر أي نضال، الصحافة بالنسبة لي وظيفة تساوي مرتبا وبطاقة عمل، في بلد لا يمكنك أن تعيش فيه دون كارنيه، أحاول أن أسير على الحبل حتى لا أتورط في بالوعات السياسة والفساد في وسط لا يجيد سوى الغوص في هذه المستنقعات.

أخرجت مفكرة صغيرة وقلما من جيبي، سرت لا أمشي بدونهما منذ قررت أن أكتب الرواية، وكتبت:

"ألم يئن الأوان أيها الرجل القابع بمفردك تتسلى بتأمل فوات عمرك، أن تتخلى عن كسلك وترفع يدك لتمسك بالثواني والدقائق

والساعات والأيام التي تمر أمامك، كذبذبات جهاز رسم القلب، تهزها وتخبرها أنك لن تترك ما تبقى لك في هذه الدنيا الصغيرة وأنك ستفعل شيئا؟".

قرأت ما كتبته أكثر من مرة، وشعرت بسخافته، فقطعت الورقة وكورتها ورميتها، لكن يسري فوتوشوب كان يراقبني، فانحنى على الورقة والتقطها، قرأها بصوت عال وهم يضحكون ويهللون، ثم قال لي يسري إنه سيسرقها ويكتبها على الفيس بوك، وأنه متأكد أنها لن تحصد أقل من 40 لايك.

ضحكت من قلبي لأول مرة في هذه الليلة، شاعرا ببؤسي وبؤسهم وتعاسة ما أفعله، فغادرتهم، وأنا أردد لنفسي أنه لا فائدة، وأنك ما دمت قد خربت حياتك في هذه البقعة الصغيرة، فحياتك خراب أينما حللت، كما قال كفافيس.

قابلت فيروز، وبدلا من أن تحكي لي في هذا اليوم حكيت أنا لها حتى الصباح عن أمي وأبي وطفولتي، وعلاقاتي المتصدعة مع إخوتي وأقاربي، وعن بسنت ودينا وكرمة، فقالت قصتك تصلح كرواية، ضحكت وقلت لها وأنا أقف للانصراف:

- اكتبيها أنتِ.

أن تنسى اسمك

- 1 -

- ماذا تتمنى أن تصبح حين تكبر يا حبيبي؟

- أتمنى ألا أكبر.

ضحك مني ناظر المعهد الديني الأزهري الابتدائي المشترك، صرفني إلى فصلي مع الفراش، وهو يصافح أبي ويخبره بألا يقلق.

لم يكن أبي قلقا، إنما أنا، لماذا سمح العالم لأبي أن يتركني هنا؟.. طابور مدرسي، و4 حصص قرآن في بداية اليوم، تنتهي بتوزيع وجبة مدرسية عبارة عن باكو بسكويت من بسكو مصر، ثم 3 حصص عربي وحساب ودين، ثم "المرواح".

في أول يوم في المدرسة ألبستني أمي مريلتي التيل نادية الجديدة، وطلبت مني أن أحافظ عليها نظيفة، فلم ألعب مع الأولاد حين رن جرس الفسحة، وقفت في ركن الحوش أقضم ساندوتشات الجبنة الاستامبولي في هدوء، حتى اقترب مني أربعة أولاد أكبر مني، سألني أحدهم:

- هل تريد أن تنسى اسمك؟

لم أكن أريد أن أنسى اسمي، لكنني قلت لهم نعم حتى أجاريهم في اللعبة، فأعطاني الولد حجرين أملسين وقال لي:

- ضع حجرا فوق قماش المريلة وحجرا تحته واضرب بقوة حتى تنسى اسمك.

رفعت ذيل المريلة وظللت أضرب الحجرين ببعضهما البعض وبينهما القماش فيتمزق، ويسألني الولد:

- نسيت؟

- لا.

فيطلب مني أن أعيد الضرب، مرة واثنتين وخمسا، حتى تمزقت المريلة بخمسة ثقوب كبيرة.

على باب المدرسة صفعني أبي حين رأى الزي المدرسي بهذه الهيئة المزرية في اليوم الأول، ستظل الثقوب الخمسة والصفعة علامة على حياتي المدرسية حتى أدخل الجامعة، لماذا كشّرت المدرسة عن أنيابها لي منذ اللحظة الأولى؟

المقرر الأزهري في حفظ القرآن في المرحلة الابتدائية ثمانية عشر جزءا من القرآن مقسمة على السنوات الست، ولأنني كنت أريد الهروب من كل ما هو حولي: ضغط أبي، وسخافة زملاء المدرسة الذين لم أندمج معهم، وعصيّ المدرسين، فقد أفنيت نفسي في الحفظ والمذاكرة، فكنت الأول دائما، أتممت حفظ نصف المصحف عن ظهر قلب في الصف الثالث الابتدائي، وأصبح ناظر المدرسة يصحبني بنفسه

في أتوبيس هيئة النقل العام إلى إدارة المعاهد الأزهرية بمدينة نصر، لأشارك في مسابقات حفظ القرآن على مستوى الإدارة التعليمية، ثم المحافظة، ثم الجمهورية، وفي كل مرة أحرز مركزا متقدما، فيمنحوني جوائز عبارة عن شهادات استثمار من البنك الأهلي فئة (ج)، ومصاحف مذهبة، وشهادات تقدير، وتكرمني المدرسة في طابور الصباح، ويجعلني مدرس الفصل أقرأ وأسمّع للتلاميذ ويعطيني العصا لأضرب من لم يحفظ ما عليه.

في الصف الرابع الابتدائي بدأ زملاء الفصل طقوس الذكورة مبكرا، يدخنون أعقاب السجائر التي يتركها المدرسون، ثم تطوّر الأمر لشراء السجائر الفرط، وبدأ التهامس حول العادة السرية، ونموّ شعر الإبط والعانة لدى الكبار ممن رسبوا أكثر من عام، وذات مرة أتى أحدهم بمجلة الشبكة اللبنانية بصورها شبه العارية، وانتشر الخبر في المدرسة كالهشيم، حتى دخل الناظر الفصل وسأل:

- من يا أولاد الكلب معه مجلة فاحشة؟

لم يرد أحد، فطلب منا أن نشي باسم صاحب المجلة، لكن من يجرؤ، فـ"الشيمي مندور عبد الرازق" صاحب المجلة هو أقوى طالب في الفصل، يكبرنا بحوالي 4 سنوات، وصاحب صولات وجولات في معارك ما قبل وبعد المدرسة.

لم يفتح أحدنا فمه، قرر الناظر تفتيش الفصل كله، يفتح كل حقيبة ويقلبها على الدكك والأرض فتتساقط كل محتوياتها، وحين تظهر براءة صاحبها من الجرم الفاحش ينحني ليجمع أشياءه.

وصل الناظر إلى حقيبتي، قلبها رأسا على عقب، لتسقط نسخة مجلة الشبكة منها على الأرض وغلافها الأعلى عليه صورة ممثلة لا أعرفها ترتدي "مايوه" شفافا لا يستر شيئا.

جرني 4 مدرسين إلى غرفة الناظر كأنني محكوم عليه بالإعدام، مشيعا بضحكات الشيمي وعصابته، بعد أن نجح في دس المجلة في حقيبتي أثناء تفتيش الناظر لباقي الفصل.

صفعني أبي وبصق عليّ بعد استدعائه، لم يصدق أحد روايتي للموقف، سقطت عني هالة القدسية التي كان الجميع يضفيها عليّ، وتحوّلت من حامل كتاب الله إلى حامل مجلة الشبكة، التي كافأني زميلنا الشيمي بـ4 أعداد منها نظير جدعنتي ورجولتي لأنني تحملت كل ما حدث دون أن أشي به، على الرغم من أنني كنت أتمنى الوشاية به لولا الخوف من بطشه.

- 2 -

أنهيت التعليم الأزهري الإعدادي والثانوي ولم أحمل السلاح أو أقاتل الكفار ممن يعيشون حولنا من تاركي الصلاة والمسيحيين، ولم أشد الرحال إلى بلدة أوروبية أغزوها وأستبيح نساءها وأطفالها وأشجارها، فقد كنت مشغولا عن كل هذا بالتحرر من قبضة أبي ودخول الجامعة، لألتحق منذ العام الأول بجرائد بئر السلم كنوع من التدريب، حتى أنهيت دراستي الجامعية والتحقت بالعمل بالجريدة التي أعمل فيها الآن.

هـا أنـذا أقف في هذه النقطـة لأمدّ الخط على اسـتقامته إلى يوم حار يسـتمع فيه أبي إلى الراديو، إذاعـة القرآن الكريم، برنامج براعم الإيمان، وأنـا ألعب أمامه بكـرة فارغة من الهواء، أقسـمها نصفين ألبسـها كطاقية وأضحك، فيقرر لي ما تبقى من طفولتي ومراهقتي، ماذا لو لم يكن لدينا راديـو؟ أو لم يفكر أحدهم في تأسـيس إذاعة للقـرآن؟ أو لم تقرر مذيعة متحمسة تقديم برنامج أطفال في إذاعة دينية؟ أو لم يلتفت أبي إلى الأمر؟ أو لو لم يكن هذا أبي؟ أو لو لم أولد أصلا؟

- 3 -

في ظهيرة هذا اليوم أتاني ساعي المكتب وقال لي:

- والد حضرتك برة.

تخيلـت أن هناك لبسـا في الأمر، فأبي لم يزرنـي في الجريدة ولا مرة منذ عملـت بها، لكنني خرجت فوجدت أبي يجلـس في صالة الانتظار، سلّم عليّ واحتضنني، طلبت منـه أن ندخل إلى مكتبـي، فطلب مني أن ننزل، فسألته:

- إلى أين؟

قال إنه سيخبرني في الطريق.

ونحـن في السـيارة قال لـي إنه لم يكن يعـرف أنهـم أعطوني إصبعه المبتور، وإن أمي أخبرته أنني دفنته ثم طلب مني أن نذهب إلى المقبرة.

حاولت إثناءه، لكنه كان مصرا.

ذهبنا إلى المقبرة، أتى التربي فمنحه أبي مبلغا كبيرا.

وقف أبي، أمام قبر إصبعه، وقرأ له الفاتحة بهدوء، تحركنا بعد أن انتهى لكنه توقف فجأة ثم وضع يده على كتفي، واستدار نحو القبر مرة أخيرة، ألقى نظرة مودعة، ثم انصرفنا.

سكرتيرة تنفيذية

- 1 -

رحلة شاقة بين دخول غرفة النوم، والدخول في النوم نفسه، تتمدد فيروز على الفراش، وتسحب الغطاء حتى كتفيها وتنتظر.

تغمض عينيها وتفتحهما، تغمض، وتفتح، تغمض، وتفتح، حتى تسمع أصوات الحياة تدب في الشارع أسفل شباكها، تتتبعها وتحاول تبين مصدر كل صوت، حتى تخفت دفعة واحدة، ولا تنتبه إلى أنها نامت فجأة إلا وهي تستيقظ بعد ساعتين أو ثلاث، فتتضايق كل مرة لأنها لم تنجح في القبض على لحظة النوم الأولى.

وهي صغيرة كانت تخاف من النوم، بجسده الأسود المكون من كتل متلاصقة من الظلام، تسبح فيها وحوش كثيرة تأتيها في الكوابيس، يهزمها فتنام، وحين تستيقظ مفزوعة وهي تصرخ تلمحه وهو يهرب بوحوشه تحت السرير، وداخل الدولاب، ومن أسفل باب الغرفة، تُبقي عينيها مفتوحتين، وتقاومه، لكنه ينتصر في كل مرة، فتستيقظ لتفتش عنه في الأركان وفي الأماكن التي تتوقع أن يختبئ فيها ولا تجده، فيكبر خوفها منه.

الآن صارت تلحّ عليه ولا يجيء، تتحايل عليه بأقراص المنوم، وبتمارين الأرقام، وألعاب التركيز، دون فائدة، يمر على الآخرين يغمض

أعينهم، ويتركها للنهاية، حتى يئنّ جسمُها، وهو يراوغ، وكثيرا ما ينساها للليلة أو ليلتين، وحين يعود لا يكون مشتاقا، يبدو فقط كأنه يؤدي واجبا ثقيلا، ثم ينصرف مسرعا.

لم يكن ودودا معها إلا في مراهقتها وشبابها، يأخذها من يدها إلى مدن مسحورة، تشبه تلك المرسومة في كتب الحكايات، يعطيها فستان وحذاء سندريلا، ويخطفها الشاطر حسن فوق حصانه، وقبل أن يصلا يأخذها النوم من يدها مرة أخرى، ويعيدها إلى فراشها، النوم يريدها لنفسه، وهي تتمنع عليه، الحياة جميلة، وهو لا يملك لها إلا الغياب.

- 2 -

قررت فيروز أن تتعامل كأي سكرتيرة في عيادة طبيب كبير، اندست وسط الزحام، وقطعت تذكرة مترو، وقفت تنتظر ثم انحشرت في عربة السيدات، وهي منفصلة تماما عما حولها، كأنها تحت تأثير مخدر، لا تشعر إلا باهتزازات المترو الرتيبة وصوت عجلاته الحديدية.

ترى ورقة ملصقة أمامها داخل عربة السيدات مكتوبا بها:

أنا شاب عمري 31 سنة، 176 سم، الوزن 79 كجم، قمحي البشرة، حسن المظهر، مؤهل عالي، العمل: لا يوجد حاليًا، وأريد الزواج من أي فتاة أو سيدة، أرملة أو مطلقة بأطفال أو بدون، وليس عندي شروط من أي نوع إلا وجود شقة لديها وأن تنفق على نفسها فقط.

أخرجت الموبايل ونقلت الرقم الموجود أسفل الورقة بحرص، حتى لا يفهم أحد ما تفعله، وحفظته باسم: شاب 31 سنة.

تنزل من المترو في محطة محمد نجيب وتتمشى حتى باب اللوق، تدخل العمارة، وتركب الأسانسير وسط أربعة رجال، يصطدم بها الأخير، وبمجرد أن يغلق الباب، يرتفع صوت شيخ خليجي منغوم:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

يرن موبايل الرجل الذي خبطها بأغنية أم كلثوم:

طول عمري بخاف م الحب وسيرة الحب.

يتداخل الصوتان، وتضيء شاشة الأدوار الداخلية:

.1

في الركن عجوز يمسح صلعته الواسعة بمنديل قماش فتبرق أكثر.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

.2

وظلم الحب لكل أصحابه

يرتفع صوت الرجل الذي خبطها في الموبايل:

- ألو.. نعم يا جمال.. الخط سيقطع.. أنا في الأسانسير وليس به شبكة.

يتوقف المصعد وتنزل. تدخل العيادة فتجد جرجس الفراش منحنيا على الأرض يمسحها ببلوفر أخضر قديم، وحين يشعر بوقوفها خلفه، يشير لها أن تدخل دون اكتراث، فتدخل وتجلس على مكتبها خلف

الكومبيوتر، وهي تراه يقتفي أثر خطواتها المتسخة على سيراميك الأرضية ببلوفره القديم المهترئ.

- 3 -

السلام عليكم يا دكتور..

أصبت بمرض جلدي منذ فترة، ذهبت إلى طبيبة فشخصته لي بأنه إكزيما وأعطتني دواءً لم ينفع بشيء، وأنا أريد العلاج التام.. هل يمكن أن تفيدني؟

عزيزي..

الإكزيما هو التهاب جلدي يظهر على هيئة احمرار بالجلد مع وجود حكة وفي بعض الحالات الشديدة يصاحبه رشح بالجلد، ويمكن أن يصاب الإنسان بالإكزيما نتيجة عوامل وراثية وهناك:

1- إكزيما تلامسية:

تنتج عن ملامسة الجلد لأشياء مثل النيكل والإكسسوارات أو الصابون أو المنظفات التى تضاف إليها مواد كيميائية، أو بعض الملابس مثل الأصواف والجلود، وعلاج هذا النوع يتوقف على معرفة السبب أولا لعلاجه.

2- إكزيما دهنية:

عادة تصيب فروة الرأس والحواجب وجوانب الأنف وخلف الأذن، وتكون مصاحبة لاحمرار وقشور وقد تتحول إلى لون أصفر تزيد مع التوتر وتغير فصول السنة وقد يصاحبها وجود التهاب لفترة.

3- إكزيما عصبية:

نوع من الإكزيما ينتج عنه تعمد الشخص حكة جلده لفترات طويلة مما ينتج عنه حدوث تغيرات فى لون الجلد وزيادة سمكه، وعادة يظهر هذا النوع من الإكزيما مع التوتر.

ومعظم علاجات الإكزيما تكون موضعية مع تناول أدوية تحتوي على مادة الكورتيزون وبعض المضادات الحيوية في حالة الالتهاب البكتيري، بجانب أقراص مضادات الهستامين.

عزيزي الدكتور ميخائيل:

أرجوك في البداية ألا تقوم بنشر رسالتي على الموقع، فلا أظن أن أحدا سيستفيد منها لكون حالتي حسبما أظن لا مثيل لها. وعليه أرجوك الإجابة على بريدي أنا لأستفيد منها أنا، حيث لا أظن الآخرين عندهم أو يمكن أن يكون عندهم جزء من مشكلتي، وهي في نقاط وباختصار:

- أنا سيدة في الأربعين من العمر.
- زوجي في الأربعين أيضا.
- لديَّ ولدان.
- تزوجت منذ عشر سنين.
- كانت حياتنا الجنسية عادية في البدء، حيث أنه لم يسبق لي وله أن مارسنا الجنس قبل الزواج.
- ولما اكتشفنا المتعة في أول سنة زواج صارت حياتنا الجنسية رائعة لتمتعنا بها كل يوم تقريبا.

- بعد سنتين من الزواج بدأ الفتور الجنسي، فصرنا مرتين في الأسبوع.

- وبعد أربع سنوات صرنا مرة في الأسبوع.

- واليوم بعد عشر سنين صارت أربع مرات في السنة فقط.

- لماذا؟ لبرودته هو، في حين أنني ولليوم ما زلت أشتهي الممارسة اليومية.

- حاولت منذ السنة الرابعة زواج أن أثيره أكثر وأكثر ليبقى كما هو في ممارسته الأسبوعية لإحساسي وخوفي من أنه ربما يقلل عن ذلك، ولكن كل ما فعلته ذهب هباء منثورا، وبقي يقلل من المعاشرة لتصل اليوم إلى مرة كل ثلاثة شهور.

- ولكن حدث في السنة الخامسة زواج أن سكن معنا في منزلنا أخوه العازب، وبحكم تأخر زوجي في المجيء للمنزل مساء كان أخوه يصل دائما قبله، ودون إطالة في السرد. نشأت بيني وبين أخيه علاقة كاملة.

- لم يكن زوجي غبيًّا إذ أحس بذلك منذ اليوم الأول، بل وأحسست أنا يومها أنه بدأ يعطينا نحن الاثنين الفرصة، وعندما أحس بأن أخاه قد نال مني حدث الغريب في حكايتي، فقد بدأ الاثنان في التنافس.

- الأخ في أول الليل يشبعني، وهو عاد كسابق عهده يفعلها معي مرة كل يوم.

- بعد سنة من الزمن تركنا أخوه، وعادت أيامنا كسابق عهدها، وعاد هو للتقليل من الممارسة معي.

- بعد سنتين من ذلك اليوم، أي ست سنين من زواجنا، أعدت أنا الكرَّة مع أحدهم، وكعادته أحس بذلك وعاد ينام معي كل يوم إلى أن انقطعت علاقتي ثانية، فعاد هو كسابق عهده.

- اليوم.. وبصدق أقول إنني أبحث عن شخص ثالث ليعود لي زوجي كسابق عهده. وبحكم سني وعدم اكتراث الشباب بي لم أجد ضالتي بسهولة، فلجأت للإنترنت لأبحث عنه، وذات يوم حفظت محادثة جنسية بيني وبين أحدهم وتركتها في مكان يمكن لزوجي أن يقرأها فيه، وبعدما قرأها عاد إلى طبيعته الأولى في ممارسة الجنس معي بشكل يومي.

- والسؤال يا دكتور: ما اسم هذا المرض الغريب المصاب به زوجي؟

- كيف السبيل إلى خلاصه من ذاك المرض؟

- لك الشكر.

- 4 -

بدأت الرسائل وردود الدكتور ميخائيل عليها تنشر على الموقع، ووجدتْ إقبالا شديدا من القراء والمرضى، صارت تصل إلى فيروز يوميا من 20 إلى 30 رسالة، تطبعها وتدخلها للدكتور فيجد صعوبة في قراءتها رغم أنها كانت تطبعها له بخط كبير جدا، صارت تقرأها له، ويمليها هو التعليقات، كان طيبا وودودا جدا عندما رآها تخجل في البداية، أقنعها أنها مثل ابنته، وأن هذه أمراض ولا يوجد ما يدعو للخجل فيها، وأن هذه

الأعضاء مثل أي أعضاء في الجسم، مما منحها على الأقل جرأة على أن ترفع صوتها بها أمام رجل غريب حتى لو كان مسنا.

بعدها صار الدكتور ميخائيل يرسل فيروز إلى الموقع في أول الشهر، تتسلم مكافأته من هناك وتوقع باسمه، بعدها صار الموقع يرسل النقود على البنك وتصرفها هي بكارت A.T.M هي التي تحفظ رقمه السري.

عرفت أنه يقسم النقود التي تأتيه من الموقع بينه وبينها، فاحترمته أكثر، وحكى لها جرجس في إحدى الليالي، أن الدكتور ميخائيل بدّل دينه أكثر من مرة بين المسيحية واليهودية والإسلام، لكنه الآن مسيحي بضغط من أبنائه.

- 5 -

عزيزتي..

أصارحك بأنها أغرب رسالة وصلتني حتى الآن، وأنا حذفت اسمك احتراما لطلبك ولكني لم أستطع منع نفسي من نشرها، لأنها لن تضرك أو تفضحك في شيء، ولكن على العكس سيستفيد منها الكثيرون، وأنا مندهش، هل الخيانة هي حل لمشكلة الفتور الجنسي والملل الزوجي؟ هناك اختراع اسمه الطبيب، وهناك اكتشاف آخر اسمه الطلاق، ولكن لا يشفع لك تحت أي مسمى أن تخوني زوجك وأن تثيريه عن طريق الجنس مع شقيقه أو تحفيزه بشات جنسي مع UNKNOWN، أنت يا سيدتي دخلت في نفق مظلم ولن يستطيع أحد إنقاذك منه إلا أنتِ.

الرحلة

- 1 -

نسيت أنني أرسلت طلبا لحضور ورشة الرواية التابعة للمؤسسة الأجنبية المهتمة بالتنمية الثقافية في الشرق الأوسط، حتى فتحت إيميلي بعد 3 أشهر على رسالة منهم تعلن قبولي ضمن الورشة وتطلب إرسال صورة من جواز سفري، وبعض البيانات.

أنهيت الإجراءات، وأرسلوا لي تذاكر السفر، فاجأني رئيس التحرير حين طلبت منه إجازة أسبوعا للسفر، بأن ألغى طلب الإجازة، وأبدله لي بورقة مهمة عمل، وهو ما يعني عدم خصم الأيام السبعة من رصيد إجازاتي السنوية، ومنحي مصروف جيب لإنفاقه أثناء السفر، شكرته، فطلب مني زجاجة فودكا وأنا عائد من السوق الحرة، وغمز لي.

ودَّعت بسنت ودينا وكرمة، حرصت على أن أذهب إلى المطار بمفردي حتى لا تصر أي منهما على مرافقتي، حملت حقيبة صغيرة، واستقللت تاكسيا، فاصلت سائقه حتى اتفقنا على نصف الأجرة المبالغ فيها التي طلبها في البداية، بعد أن أوصلني إلى المطار، وحاسبته ونزلت، وتحرك بسيارته، وقفت أفتش جيوبي بحثا عن هاتفي المحمول،

فاكتشفت أنني نسيته على الكرسي المجاور له، طلبت من شاب يقف بجواري أن يتصل به بسرعة، فرد السائق، قلت له:

- أنا نسيت موبايلي معك.

ضحك السائق ضحكة طويلة، ثم أغلق الموبايل من يومها إلى الأبد.

بداية مبشرة للرحلة الأولى لي خارج مصر كروائي، في المطار قابلت اثنين من الكتاب الشباب: ناصر عليوة، ومحمود راشد. أعرف الأول معرفة سطحية بحكم عملي الصحفي، ولا أعرف الآخر إلا من خلال قصتين أو ثلاث قرأتها له في أخبار الأدب ومجلة الثقافة الجديدة، تصافحنا، أخبرني ناصر أن عدد المشاركين بالورشة اثنان وعشرون كاتبا شابا، تحت الأربعين عاما، وفقا للشروط، وأننا نحن الثلاثة فقط من مصر، والتسعة عشر من باقي الدول العربية، همس لي بأنه لديه كل المعلومات، من سكرتيرة المؤسسة وضغط على ساعدي وهو يقول إنها صاحبته ثم غمز، فهززت له رأسي، حكى لي محمود راشد باعتباري أعمل في بلاط صاحبة الكنافة كما أسماها، عن اضطهاد الصحافة له باعتباره من كتاب الأقاليم وأن القاهرة مركزية وعنصرية، وأن كتاب القاهرة محظوظون لأن أمهاتهم فتحن أرجلهن وولدنهم في العاصمة، أداؤه وطريقته هزليان فلم نتمالك أنفسنا أنا وناصر من الضحك، رغم ضيقي من سرقة الموبايل.

جلسنا متجاورين نحن الثلاثة في وسط الطائرة، مما أغضب محمود راشد وجعله يتشاجر مع المضيفة لأنه يريد الجلوس بجوار

الشباك، شرح له ناصر أن الجلوس بأرقام المقاعد، وأنها طائرة وليست ميكروباص، فزمجر محمود وقال إن الدنيا كلها تضطهده لأنه من كتاب الأقاليم، ضحكنا منه، وكان هناك رجل خمسيني أنيق يراقبنا من مكانه بجوار النافذة، فأشار لمحمود بأن يبدّل مقعده معه، لم يصدق محمود نفسه وزعق وهو يحيي الرجل وقال له إن الدنيا مازالت بخير، قام فورا وجلس مكان الرجل وأشار لنا ثم غرق في النوم ولم يستيقظ إلا على هزات يد المضيفة تطلب منه أن يربط حزام مقعده استعدادا للهبوط.

في السابعة مساء وصلنا الفندق ذا الخمس نجوم الذي حجزت لنا به المؤسسة، استقبلتنا السورية مرام سكرتيرة المؤسسة ففوجئت بناصر يعاملها بمداهنة شديدة، رغم أنها مجرد موظفة إدارية لا علاقة لها بالكتابة أو الكتاب، فهمت بعد ذلك أن ناصر يهوى إطلاق لقب صاحبي وصاحبتي على أي شخص لديه قدر من الأهمية أو الشهرة لإضفاء هالة مزيفة على نفسه لتعويض رداءة كتابته.

في خلال ساعة تجمع الاثنان وعشرون كاتبا على العشاء، بيننا أربع كاتبات فقط، جزائريتان، ولبنانية، وسودانية، أعلمتنا مرام أننا سنقيم في غرف مزدوجة، فصرخ ناصر في أذني بهمس:

- يا نهار أسود.

ظننت أن اعتراضه نابع من تقديره الخاطئ لأهميته، وأنه يرغب في غرفة منفردة، لكنه مال على أذني وقال:

- لابد أن تذهب إلى مرام، وتخبرها أننا نريد أن نسكن في غرفة واحدة.

لم أفهم غرضه، ولم أكن مرتاحا لصحبته لدرجة أن أطلب بنفسي أن ألازمه لمدة 24 ساعة طوال مدة الورشة، فلم أهتم، حتى أتى لي بمرام وقال لها أمامي إن إقامتنا معا في غرفة واحدة هي رغبة مشتركة، فنظرت لي مرام متسائلة فهززت لها رأسي بالإيجاب حتى لا أحرجه، فكتبتْ اسمي مع اسمه.

في الغرفة وقف ناصر يستبدل ملابسه، وحمد الله أن خطته نجحت حتى نقيم معا، وأنه لولا أن مرام صاحبته لفسدت الخطة، قال لي وهو يخفض صوته ويتلفت حوله رغم أننا بمفردنا:

- الحمد لله أن واحدا منا لم يسكن مع محمود راشد في غرفة واحدة، يا نهار أسود، مصيبة.

في الحقيقة لم أحب لا ناصر ولا محمود، كنت سأرتاح أكثر لو رافقني في الغرفة كاتب أردني أو تونسي لا أعرفه، فيكفيني أرق ثرثرة ناصر، لكنني قلت له:

- محمود يبدو ناقما، لكن دمه خفيف.

ضحك ناصر بشدة، وقال لي:

- أنت ساذج جدا، محمود عجلة.

لم أفهم، فهززت رأسي له مستفهما، فرد:

- Gay، شاذ، ركوبة.

أخبرته أنه حر فيما يفعله، وأنني ليس لي علاقة بميوله الجنسية، ضحك ناصر وأخبرني أنني رجل طيب وأنني إذا ابتعدت فإن محمود

نفسه لن يتركني بعيدا عن ميوله الجنسية، وأنه يظل طبيعيا ولا يظهر هذا الأمر إلا حين يشرب ويسكر، فيتحرش بأي شخص أمامه، ثم ضحك مرة أخرى، وقال:

- ما بالك بشخص ينام معه في غرفة واحدة وثالثهما الشيطان؟

لم أضحك وقلت له إنني سأنام لأن لدينا اجتماعات مبكرة من الصباح، أطفأت نور نصف الغرفة الخاص بي وخفف هو باقي الإضاءة، وقال لي:

- تصبح على خير.

نمت سريعا، وحلمت بسائق التاكسي وهو يبيع هاتفي المحمول في شارع عبد العزيز، وأن دينا هي التي اشترته منه وقرأت كل الرسائل المتبادلة بيني وبين بسنت، ثم شعرت بالعطش فاستيقظت لأشرب، متخيلا أنني أستيقظ في سريري في شقتي بشارع الهرم، لكنني بمجرد أن فتحت عيني لم أر أمامي إلا غرفة مظلمة، لا يضيئها سوى نور شاشة لاب توب غير بعيد يقف أمامه ناصر عليوة يشاهد فيلما جنسيا ويمارس العادة السرية وهو يبذل مجهودا بالغا لكتم صوته.

- 2 -

نزلت إلى الإفطار مبكرا، وفي منتصف تناولي للطعام أتي ناصر حاملا طعامه وجلس بجواري، لم أخبره بما رأيته ليلة أمس، نظر إلى محمود راشد وشريك غرفته المغربي وهما يتناولان الطعام معا وقال لي:

- يبدو أنهما انسجما.

في الجلسة الأولى، اجتمع الاثنان وعشرون كاتبا، بعد أن جمعتهم إحدى عشرة غرفة في الليل، بدأنا التعارف وبعض المزاح بغرض الاستكشاف، قطعه دخول سماح الطويل لتحاضرنا، بدأت بتعريف نفسها لنا كنوع من البروتوكول، قالت إنها روائية وأكاديمية مصرية، وإنها لا تكبرنا كثيرا، ثم ضحكت وقالت إن الإتيكيت سيجبرنا على عدم سؤالها عن عمرها، لم أرتح لها من اللحظة الأولى وشعرت بنبرة ادعاء وتمثيل وتعالٍ غير مبرر في كلامها، خصوصا أنها روائية متواضعة ومغمورة، لها روايتان لم تحققا أي منهما صدى، كأنهما لم تصدرا، قرأتُ منهما الثانية التي أشاد بها ناقد كبير معروف بمقالاته المستمرة عن الأثرياء من كتاب الخليج، أو المسئولين في مصر، أو الكاتبات الصغيرات خصوصا الجميلات منهن، فلم أستطع إكمال الرواية من فرط ركاكتها وسذاجة أفكارها.

همست لمحمود الجالس بجواري:

- لماذا تتكلم سماح بهذه الطريقة كأنها مُدرسّة إنشاء أمام تلاميذ في مدرسة ابتدائية؟

حكى لي محمود سريعا أنها مشهورة في مقاهي وسط البلد بأنها تدعي الانحياز للمرأة وحقوقها حتى تصنف ككاتبة نسوية، وأنها تستعمل في رواياتها خلطة معروفة عن ختان الإناث والحجاب واغتصاب المحارم من أجل الترجمة والدعوات للسفر لأوروبا وأمريكا، وأنها تنجح في ذلك دائما، حيث ترجمت رواياتها لحوالي 10 لغات ولفّت العالم مرة أو

مرتين بسببهما، وأنها ستقبض مبلغا محترما بالدولار مقابل هذا الخراء الذي تصبه علينا.

ضحكتُ بصوت مرتفع من طريقة محمود، فاغتاظت سماح، شعرت أن الضحكة موجهة إليها، فطلبت مني أن أناقشها فيما كانت تقوله، لأنه من احترام المتحدث أن يتم الإنصات لحديثه، استفزتني طريقتها مرة أخرى.

وقفت وأنا أضحك بسخرية، قلت لها إنني سمعت جيدا ما كانت تقوله عن الوحي والإلهام في الكتابة وأنهما عبارة عن وهم، وأن الكاتب المحترف ينبغي أن يكتب بمجرد جلوسه إلى المكتب، دون انتظار لملاك أو شيطان يهبط عليه من السماء ليلقّنه ما يكتب، قلت لها إنني لست ضد هذا الكلام، لكنني ضدّ أن أسمعه منها هي تحديدا، لأن كتابتها الركيكة تضرب نظريتها في مقتل، لأنها ربما لو جلست إلى مكتبها وانتظرت الإلهام وكتبت ما يمليه عليها فربما أتت كتابتها أفضل قليلا.

ضحك الحضور كلهم بشدة، واشتعل وجه سماح من شدة الاحمرار، وانسحبت من قاعة المحاضرات، وأبلغت إدارة الورشة بأنها لن تكمل المدة إلا لو تم حرماني من الورشة، وقالت لهم بوضوح:

- أنا أو هو.

جلست مع مرام، ومديرة الورشة، وهي ناشطة سياسية ومثقفة مصرية تدعى دكتورة أفنان الخطيب، انتهت الجلسة على أنني لن أحضر محاضرات سماح الطويل لكنني سأكمل الورشة حتى نهايتها، وهو ما اقتنعوها هي الأخرى به.

ارتحت لهذا القرار، واستغللت معظم أوقات الفراغ بين المحاضرات التي رأيتها في الغالب لا معنى لها، في كتابة روايتي، اتصلت من هاتف محمود بعد أن ارتحت لصحبته أكثر من ناصر ببسنت مرتين وبدين مرتين وبأمي مرة، وأصبت بإسهال حاد من طعام الفندق، فاهتمت بي مرام جدا، وأصبحت ملاكي الحارس طوال فترة الإقامة حتى أشاع ناصر أنني على علاقة بها، وأنه داهمنا ذات صباح في غرفتي، فلم أهتم بنفي الشائعة أنا أو مرام، التي كانت تزورني في الغرفة أحيانا لنتكلم دون أن يحدث شيء بيننا.

في إحدى المحاضرات مع كاتب فلسطيني مخضرم، وفي وسط كلامه الممتع عن تجربته الكتابية، قام الشاب المغربي شريك محمود في الغرفة، وأمسك بناصر من ملابسه وانهال عليه ضربا وهو يسبه بأعضاء أمه الحساسة، لأن ناصر أشاع عنه وسط الجميع بأنه ارتاح مع محمود لأنهما مثليان وأنهما يتضاجعان أكثر من مرة يوميا، دافع المغربي عن نفسه، قال لناصر إنه لم ير أي شيء سيئ من محمود، الذي جلس محايدا كأن الأمر لا يعنيه.

انتهت المعركة بإجبار ناصر على الاعتذار للكاتب المغربي، ووقف الكاتب الفلسطيني متعجبا من اهتمام ناصر الغريب بمؤخرات الآخرين، طلب منا وهو يضحك كتدريب كتابي أن يكتب كل منا نصا عن المؤخرة على أن نسلمه في اليوم التالي، كان أجملها نص كاتبة جزائرية ونص محمود، فقال لي ناصر بهمس ومحمود يقرأ قصته:

- ألم أقل لك؟ هذا عجلة محترف.

- 3 -

في طائرة الرجوع جلس محمود وناصر متباعدين جدا، وجلست أنا بجوار امرأة تحمل رضيعا ظل يبكي طوال الطريق، وهي تحاول إسكاته بشتى الطرق دون أن تفلح، وتنظر لي بأسف خشية انزعاجي، أخبرتها بابتسامة أنني غير منزعج على الإطلاق، فابتسمت في راحة.

علمت من محمود الذي تحرك نحوي ليقترض مني كتابا يقرأ فيه، أن سماح الطويل ومرام معنا على الطائرة، لكنني لم أرهما أثناء صعودنا.

تأكدت من أنني على صواب في قراري عدم الاقتراب من عالم مثقفي وكتاب وسط البلد بمقاهيها وباراتها، وأثناء إنهاء إجراءات الخروج في مطار القاهرة، وجدت يدا ثقيلة تربت كتفي، التفتّ فوجدت فم سماح الطويل في أذني، وهي تهمس:

- لن أنسى ما فعلته، وتأكد أنه لن تأتي أمامي أي فرصة لإيذائك إلا وسأنتهزها.

ابتسمت لها في سخرية، وخرجت من المطار، أفكر في أن كتابة رواية ليست بالتجربة السهلة أبدا، على الأقل فهي تكبد المرء دفع ضرائب باهظة، كأن يصبح محيطه مليئا بكل هؤلاء المرضى.

«كيفك إنت؟»

- 1 -

جلست فيروز بالخارج تنتظر انتهاء زبائن العيادة حتى تدخل إلى الدكتور ميخائيل برسائل القراء.

جرجس العامل هو الذي ينظم دخول المرضى، ويوصل الدكتور ميخائيل حين لا تأتي ابنته لتصحبه، اقتصر دور فيروز على تنسيق الرسائل والاستشارات معه ثم مع الموقع، أحبت هذه المهمة، صارت تنتظر دخولها عليه بصبر نافد، كانت تقرأ الرسائل وتراها غريبة جدا، ولا تكتمل متعتها بها إلا حين تجلس أمامه وتكتب الردود التي يمليها عليها وهو يروح ويجيء كالكُتّاب في الأفلام العربية القديمة.

وضعت سماعة الرأس في أذنها، وأدارت من الكمبيوتر أغنية فيروز كيفك انت؟، جلست تستمع باندماج تام، كل قليل تنظر في ساعة الكومبيوتر وتشعر أن الوقت لا يمر، تذكرت ساعة الميدان، في كل مرة كانت الساعة تدق وهي تنتظر أسفلها تشعر بالسعادة لتأخر من تنتظره تحتها، لا تشعر بأي ملل من الانتظار، تحبّ كثيرا أن يتأخر من يواعدها، لحظات الانتظار تمنحها فرصة مثلى للانفراد بنفسها، مع متعة توقع مداهمة القادم لها في أي لحظة، ساعة الميدان تدق مرة كل ربع ساعة،

ومرتين كل ساعة، كل دقة هي مكسب لها، المهم في النهاية أن يأتي من تنتظره، يتأخر كما يحلو له، لكن يجب أن يأتي.

خطيبها الأول لم يفهم هذه النقطة نهائيا، دائما تذهب فتجده في انتظارها، كل مرة تذهب مبكرا أكثر، وفي كل مرة يبتسم لها منتصرا، كأنها لم تنجح في مغافلته، هذه النقطة وعروة مائلة في إحدى ستراته، واسمه ناجح، صنعت لفيروز أسبابا مقنعة جدا لها كي تنهي علاقتها به.

قطع جرجس الأغنية، وذكرياتها، وهو يشير لها بالدخول إلى الدكتور، فابتسمت له وقامت وهي تفرد شعرها وتدندن:

بترجع ع راسي

رغم العِيال والناس

- 2 -

"أحيانا يحتاج الإنسان إلى الابتعاد لفترة عن الأشخاص الذين يحبهم ليدرك كم هو بحاجة إليهم"، نقلتُ هذه العبارة من فيلم أمريكي تجاري، وفكرت أن أستعملها في الرواية، جربت إسقاط الأمر على دينا، هل زادني الوِرد عطشا، كـ"الحلاج"؟.. لماذا التعلق بها إذن إلى هذا الحد؟ لماذا أواصل إفساد حياتها وحياتي؟ لماذا لا أعتبرها زيجة غير ناجحة تنتهي كآلاف غيرها، هل يمكنني اعتبار الفترة التي ابتعدت فيها عن بسنت ودخلت فيها دنيا جديدة هي التي جعلتني أدرك أنني مازلت أحب بسنت؟ أم أنني أحب دينا، أم أنني أحبهما؟ أم أنني أناني

أحب نفسي؟ أم أن المشكلة كما قالتها لي صديقة ذات مرة حين حكيت لها هي أنني لم أتعلم أن أحب نفسي ولهذا لم أحب أيا منهما؟

حياتي معقدة كحبل قديم ملقى في مكان مهجور وجده طفل صغير وقرر أن يصنع منه أرجوحة ليلعب بها، كلما حاول فك عقده تعقد أكثر وأكثر، فصار الحل أن يتركه ويرتاح أو يقطعه قطعا صغيرة ويحاول ربط ما يصلح منها مع بعضها البعض، لكنه سيصير أضعف، أشعر كأني أقطع طريقا لا أريد إكماله لكنني لا أعرف غيره، وأنزف الخسائر على طول رحلتي.

قابلت قريب دينا الذي وشى بي لديها، يعمل بالقرب من مقر الجريدة، استوقفته لأعاتبه، بدأت الكلام بالسؤال عن أحواله هو وزوجته وأبنائه، بدا بشوشا ومتعجبا من طريقتي الودود في الحديث، فاستفاض في الحكي عن شئونه، ربما خاطب نفسه بأنني لم أعرف، أو ظن أن دينا لم تخبرني، ظل يثرثر، وأكد عليّ ضرورة تلبية دعوته على الغداء في الأسبوع المقبل في بيته أنا ودينا وكرمة، قاطعته وسألته:

- أليس من العيب على رجل في سنك أن يشي لامرأة عن زوجها؟

أنكر في البداية فحاصرته، فأدار دفة الحديث إلى أن العيب عليّ أنا أن أترك زوجة مثل القمر وطفلة اعتبرها خسارة فيّ لكي أدور على حل شعري، لكمته في أنفه، فنزف، أمسك بملابسي واشتبك معي، تبادلنا اللكمات ثم حاول إسقاطي أرضا، فسقطت وأخذته معي ثم اعتليته، حاولت لكمه في وجهه لكن المارة تجمعوا وفرقوا بيننا، شتمته بالأم والأب وهم يبعدونه عني.. وهو يتوعدني بأن الأمر لن يمر.

اتصلت بـ"بسنت" واعتذرت لها عن الموعد بيننا، أخبرتها بأن الأجواء في الشوارع متوترة، وأن قميصي ممزق إثر المشاجرة، وأنني سأعود إلى شقتي في هرم سيتي، فقالت لي إنها ستلحق بي لكي تطمئن عليّ، حاولت إخبارها بأنني على ما يرام، وأن الطريق ليس آمنا، لكنها أصرت.

اليوم كان مرهقا في العمل، بعد تدخل الشرطة لفض اعتصام الإخوان في رابعة وميدان النهضة.

نظرت في الهاتف فوجدت أن فيروز هاتفتني أكثر من مرة في وقت المشاجرة، فأعدت الاتصال بها، اتفقنا على موعد قريب لتكمل حكايتها لي، ثم سألتني عن صوتي الذي شعرتْ بغرابته، فأجبتها بأنني سأحكي لها حين نلتقي.

أوقفني كمين تابع للجيش بسبب قميصي الممزق، أطلعتهم على بطاقتي وكارنيه نقابة الصحفيين، سألني الضابط عن سر قطع قميصي فأخبرته أنها مشاجرة بسيطة، حاول التهكم عليّ بأن أتصل بهم على الخط الساخن إذا تشاجرت مرة أخرى لينقذوني فلم أبتسم له، فتحوا لي الحواجز وواصلت طريقي.

ظل والد دينا يتصل بي بشكل مستمر فأغلقت الموبايل وقررت ألا أرد.

- 3 -

السلام عليكم دكتور ميخائيل المحترم:

بارك الله فيك يا دكتور على المجهود الذي تبذله في الإجابات على الأسئلة.

سؤالي يا دكتور أنني ذات يوم ذهبت للبحر أنا وزوجتي للسباحة.. بينما كنا بالبحر جامعت زوجتي. سؤالي يا دكتور هل هناك أي خطر عليّ أو على زوجتي أثناء الجماع في البحر. هذا ولك جزيل الشكر على مجهودك.

عزيزي:

لا خطر عليك في جماع البحر.. إلا إذا رآك حرس الحدود!

تراب الذل

- 1 -

دخلتُ إلى شقة هرم سيتي، وقفت تحت الدش الساخن أغسل آثار المشاجرة العابرة مع قريب دينا، فكرت لماذا لم أنظر إلى فيروز نظرتي إلى أي فتاة أو امرأة جميلة، لماذا وضعتها في ركن المحارم بهذا الشكل، هل هو السن، أم طريقة تعاملها معي؟ لماذا حين قضيت الليلة الأولى في منزلها هربا من حظر التجوال لم أفكر فيها كامرأة؟ ولماذا لم أعتبر الدعوة لقضاء الليلة معها سوى عرض طيب؟

هل تنظر لي فيروز نظرتها إلى رجل أم أنني بالنسبة لها مدوّن ذكرياتها؟ هل تحكي لي لأكتب فعلا، أم أنها تريد أن تتجرد من كل ما تحمله أمامي؟ تحكي دون خجل أو ترتيب أو تزيين لما حدث، ماذا دار في رأسها وهي تنام معي تحت سقف بيتها لا يفصل بيننا سوى باب غير مغلق؟

ليس السن، فهي مازالت محتفظة بجمالها، وسني بالنسبة لها منتهى الشباب والقوة. جففت جسدي وارتديت ملابس جديدة، قلت في نفسي ربما لم أشأ تعقيد حياتي المعقدة أصلا بامرأة أربعينية، تتعامل معي كطبيب نفسي تنام أمامه على الشيزلونج وتحكي لترتاح، مسئوليتي الطبية تجاهها تمنعني تماما من النظر إليها كهدف أود الوصول إليه.

- 2 -

رن جرس الباب ففتحت لأجد بسنت أمامي، تحسستني بقلق كأم تطمئن على ابنها بعد أن سمعت أنه تشاجر في المدرسة، ضحكتُ وأخبرتُها أنني على ما يرام، قلت لها لو أن مشاجراتي ستأتي بها إليّ بهذه السرعة واللهفة لتشاجرت كل يوم.

دخلت بسنت المطبخ لتعد لنا كوبي قهوة، فانتهزت هذه الدقائق وفتحت اللاب توب لأنظم بعض ما حكته لي فيروز بقلق جندي داخل حرب، وليس ككاتب مبتدئ يجمع مادة أول رواية.

فجأة انهالت طرقات عنيفة جدا على باب الشقة، نظرت لي بسنت ونظرت لها، ثم فتحت الباب، ففوجئت بشاب عملاق يدفعني بقوة نحو الداخل دفعة طيرتني من أمامه ثم اقتحم الشقة، وحين رأى بسنت جذبها من شعرها.

اختطفتُ سكينا من المطبخ وتوجهتُ إليه وهددته به، فأخبرتني بسنت أنه ابن خالتها، ربطت بين الموقف وما قالته لي سابقا عن محاولة ابن خالتها طلب يدها للزواج، قلت في نفسي إنني أمام عاشق مجنون راقب بسنت حتى شقتي وأنني لو لم أسيطر على الموقف سريعا فلا أعلم إلى أين سيتطور.

هاج الثور ابن خالة بسنت وماج وهو يقول لها كلاما من نوعية أنها تذهب إلى شقق الرجال، ولهذا لم تقبل الزواج به، أبعدته عنها بصعوبة وهددته بمنصبي الصحفي بإبلاغ الجيش للقبض عليه، واستغللت خلو الصالة من الأثاث، وأخبرته أن هذه ليست شقة، ولكنها مكتب على وشك

التأسيس وأن كل علاقتي بالآنسة بسنت هي علاقة عمل، وأنها ستعمل مديرة للمكتب، لفقت له قصة تبدو مرتبة لكنها مليئة بالثغرات، إلا أنه بدا كغريق يريد أي قشة ليتعلق بها حتى لا يصدم في ابنة خالته وفتاة أحلامه.

فجأة انقلب الثور الهائج إلى طفل مسالم يعتذر لي ولبسنت بشدة، ثم طلب مني أن نقف أنا وهو بالخارج لدقائق، خرجت معه وأنا أصطنع الغضب من السلوك الذي قام به، وأشيد له جدا بأخلاق الآنسة بسنت.

أخبرني بالخارج أن اسمه وليد، وأنه لم يحب في حياته سوى بسنت، وأنه لا يعيش إلا لهدف واحد هو أن يتزوجها، دمعت عيناه قليلا في وسط الكلام، وبدا مرتبكا وضعيفا ومحرجا وهو يسكب كل ما في قلبه أمام شخص يراه للمرة الأولى، طلب مني باعتباري مدير بسنت في العمل أن أحاول إقناعها به، وسرد لي تفاصيل مادية كثيرة عن شقة وأثاث وشبكة ومهر وأمور رأى أنه ينبغي أن أسردها على بسنت لتقتنع به.

طلب وليد رقم هاتفي فأعطيته له، فرن لي رنة مرتبكة، وطلب مني أن أسجل رقمه، فسجلته أمامه، اعتذر بشدة واستأذن مني للانصراف دون أن يجرؤ على مواجهة بسنت مرة أخرى.

دخلت الشقة فوجدت بسنت تبكي وترتعش من الخوف.

انصرف وليد وترك حب حياته في شقتي، لأن قلبه يرفض أن يلوّثها بأي صورة، أشفقت عليه، وأشفقت على نفسي، وألحّ عليّ بيتُ الأصمعي:

"مساكين أهل العشق، حتى قبورهم

عليها تراب الذل بين المقابر".

شاي وسكر

- 1 -

حين قررت فيروز التخلي عن السكر في الشاي لم تفعل هذا تدريجيا، بل مرة واحدة، من ثلاث ملاعق إلى صفر، قريباتها البعيدات اللاتي يرينها كل سنوات ظنن أنها أصيبت بمرض السكري، لكنها اكتفت بالاستماع إليهن ورشف الطعم الساخن المر في تلذذ بنكهته الأصلية الخالصة.

وضعتْ البراد على النار، واستندت بظهرها إلى الثلاجة التي لم تتحمل ثقلها فمالت إلى الناحية الأخرى، أصدر موتورها صوت حشرجة، ابتعدت عنها ببطء حتى لا تصطدم الثلاجة بالأرض أثناء رجوعها إلى وضعها الطبيعي، وضعتْ ملعقتي شاي في الكوب الكبير، وظلت تخبط بالملعقة على جدران الكوب في انتظار غليان الماء.

تحب كل أنواع الشاي، وكل نكهاته، تمكنت من حفظ معظم الوصفات الموجودة في كتاب الشاي لدى شعوب العالم، الذي يحوي أكثر من 250 طريقة لعمل الشاي بأنواعه ونكهاته المختلفة. الشاي المكسيكي ذو الرائحة الحارة يعني لها أول كلب اقتنته في حياتها، أسمته ناشد باسم خطيبها الثالث الذي خانها مع جارتها قبل الزواج بأسبوع،

تزامن كشف خيانته لها مع إهداء أحد أصدقاء والدها هذا الكلب الضخم لها، كانت تصحب ناشد الكلب في جولات مسائية طويلة، تشكو له من خيانة ناشد الخطيب، تمسك بيد الكلب، تحتضنه وتقبله، وتشتري له الهدايا، وتتقاسم معه الطعام، ترفض خلع ملابسها أمامه، لكنها تجاوزت عن هذا بعد أن توطدت علاقتهما أكثر، في هذه الفترة كانت قد أدمنت الشاي المكسيكي، تشرب أكثر من 20 كوبا يوميا، ولا تشرب كوبا إلا وتسقي ناشد الكلب كوبا في المقابل.

فجأة تبدلت مشاعر فيروز تجاه الكلب، قالت إن ملامحه تشبه ملامح خطيبها السابق فعلا، وإنها لا تتحمل رؤيته، لكن الجارة الخائنة كما أراحتها من ناشد الخطيب قضت على ناشد الكلب بالسم، متخيلة أنها ستكسر قلب فيروز عليه، دون أن تدرك أن قلب فيروز غير قابل للكسر، لسبب بسيط هو أنه مكسور بالفعل.

لا تحب فيروز الشاي ثقيلا، لكنها تضع كمية كبيرة منه في الكوب لأنها تحب مضغ التفل المترسب في النهاية، متعتها الحقيقية، تحتسي الشاي ببطء شديد، متحملة مرارته دون سكر، حتى تؤخر لحظة المتعة، حين يصل منسوب السائل إلى مستوى سطح الأوراق البنية متناهية الصغر، تبدأ في رج الكوب برفق، حتى لا يتناثر الشاي بالخارج، وتميله بسرعة حتى لا تترسب أوراق الشاي المفتتة مرة أخرى، تفتح شفتيها فتحة رفيعة، وتمد طرف لسانها إلى الخارج، لتتلقى به المزيج المحبب، تترك السائل ينساب على جانبي لسانها، وتضغط التفل بين لسانها وسقف الفم، حتى تصفيه تماما، ثم تبدأ في مضغه باستمتاع.

بدأت في صب الماء على الشاي، تناثر رذاذ ساخن على يدها، أجبرها على أن تترك البراد وتمسح ظهر يدها في جنبها، وحين واصلت الصب مندفعة فاض الماء على حواف الكوب، ولسع أناملها.

حملت كوب الشاي في الصينية الصغيرة وخرجت من المطبخ، تعثرت في فردة حذائها، لكنها ظلت محافظة على توازنها، ابتسمت حين اكتشفت عدم سقوط قطرة واحدة، سارت في هدوء، ووضعت الصينية على الأرض، وجلست بجانبها.

رن هاتفها المحمول باسم جرجس، فلم ترد، حتى أرسل لها رسالة بعد المرة الثالثة.

- 2 -

يمرض الدكتور ميخائيل وتغلق العيادة لمدة أسبوع، تسافر فيروز إلى بورسعيد، تقيم عند خالها المكفوف وزوجته، بعد إلحاح منهما رغبة في رؤيتها، خافت أن يأتيا ويقيما لديها فلا تعرف كيف تصرفهما، فقررت السفر هي.

استقبلها خالها وزوجته بحفاوة كأنها مازالت فيروز الطفلة التي تتقافز في حجريهما، لم ينجبا رغم تقدمهما في السن، وحين تعايره المرأة بعماه يعايرها بعدم الإنجاب، يجري وراءها في الشقة كلها لكي يضربها، حتى تصعد فوق الكنبة ومنها فوق الثلاجة بجسدها الضئيل وتكتم أنفاسها، فلا يعرف أنها هناك، أخبرتها زوجة خالها بسرها، وهي تستحلفها برحمة أمها ألا تخبر خالها.

زوجة خالها تحبها أكثر من خالها البخيل، كانت فيروز وهي صغيرة تحب السفر إليهما، فكان يخبئ منها الطعام والفاكهة فتأتي لها بهما وهو نائم، وحين يصحو تخبره أنها هي التي استيقظت جائعة وأكلتهما.

روايات العائلة عن فقد الخال لبصره متعددة، لكنه يكذّبها كلها لصالح قصة مختلفة تماما يرويها بنفسه، يقول إنه كان يعمل صيادا أثناء العدوان الثلاثي على مصر، اشتد الهجوم على بورسعيد برا وبحرا وجوا، وانضم أبناء المدينة إلى الجيش، نظموا كتائب المقاومة الشعبية، وكان هو مساعدا لقائد إحدى الكتائب، نسي اسمه، وفي يوم 5 نوفمبر 1956، نجح الخال مع كتيبته في القضاء على جنود المظلات الإنجليز الذين كانت الطائرات تلقيهم فوق منطقة الجميل عن آخرهم، وذات مرة نزل في حفرة، ثم أطلق النار على ضابط اسمه جورج، فجاءت الرصاصة في رأسه، لكنه لم يمت، نزل الجنود الإنجليز بغزارة في الموقع، ولم يحملوا إلا جريحهم الذي كان يحمل رتبة كبيرة، لكنه أشار لهم إلى الخال، ورفض التحرك إلا إذا أخذوه معهم.

في موقع الإنجليز عرف الخال أن الضابط الإنجليزي الكبير فقد بصره بسبب رصاصته، وطلب الضابط أن ينزع عيني الخال بيده، فأجروا له محكمة صورية قضت بفقء عينيه، أوثقه الجنود، وأتى الضابط متخبطا، رافضا أن يمسكه أحد، اقترب منه، حتى شم الخال رائحة خمر قوية وبارود تنبعث منه، مد الضابط يده دون كلمة، وغرز إصبعيه السبابة والوسطى في العين اليسرى أولا، حتى تأكد من أنها صفيت تماما، ثم

كرر نفس الحركة في العين اليمنى، وانصرف دون أن ينطق كلمة واحدة، والخال يصرخ من شدة الألم، ومن رعبه من العمى.

يواصل الخال:

- لكنهم لـم يعطوني كارنيه المحاربين القدماء، لأنني لم أكن مجندا في الجيش.

كل مرة يحكي فيها الحكاية، تشـير لهـا زوجة الخال وتأخذها جانبا، تخبرهـا أنـه يكذب، وأن هـذه الحكايـة كاملة تخص شـخصا آخر، وأنه سمعها على المقهى، تقول إنه فقد بصره أثناء الحرب فعلا، لكن لأنه كان يصـادق قاتلا مأجورا، ينام ويـأكل معه، وكان القاتل ينفـق عليه لصعوبة الظروف وقتها، لكنه نظر إلى زوجته وهو في الحمام، فعاقبه بقلع عينيه.

- 3 -

فـي طريق عودتها إلى القاهـرة، اتصل جرجس بـ"فيروز"، طلب منها ألا تأتي إلى العيادة في الغد، لأن الدكتور ميخائيل: البقية في حياتك.

عاشق ومعشوق

- 1 -

في عيد ميلاد كرمة الأول اشترت أمي هديتها قفص عصافير زينة، قالت إنها:

- عصافير أسترالي.

أحبت كرمة زقزقتها ولعبها كما قالت أمي، وكانت دينا تضع القفص في مكان عالٍ خوفا على البنت من أنفلونزا الطيور، فتظل رقبة كرمة معلقة بالعصافير التي تراها من بعيد وتود أن تمسك بها، وحين تكون دينا في المطبخ أحمل القفص وأضعه أمام كرمة مباشرة، فتحاول كرمة أن تتحرك لتدخل إلى العصافير، فأشفق عليها من قفص الحياة الكبير الذي نعيش فيه دون أن يهتم أحد بما نعانيه في الداخل.

في أيامي الأخيرة معهما أخبرت دينا أنني أريد أن أشتري كلبا نربيه في البيت ويكبر مع كرمة وترتبط به، لكنها خافت من مجرد فكرة أن نربي حيوانا مفترسا مع ابنتنا يمكن أن يأكلها، ضحكت منها وفرجتها على عدد كبير من الفيديوهات على الإنترنت لكلاب شرسة تتعامل مع الأطفال بمنتهى الحب والحنو، ننتقل من فيديو إلى آخر، حتى نقلتنا

الفيديوهات إلى مقاطع لطيفة لقطط تتعرض لمقالب مضحكة على يد أصحابها، بعدها بيومين كانت لدينا قطة شيرازي بيضاء ناصعة بعيون زرقاء، أسمتها دينا بيانكا، وأحبتها كرمة، ليظل حلم طفولتي باقتناء كلب مجهضا، ربما في حياة أخرى تصبح لديّ كلاب كثيرة أجلس معها وأشكو لها كل ما حدث لي في هذه الحياة المبتسرة.

لم أكن قد تجاوزت التاسعة من عمري حين عدت من المدرسة باكيا بسبب سرقة حقيبتي المدرسية بكل ما فيها في فسحة اليوم الدراسي، ذهبت إلى الناظر، فوبخني واتهمني بالخيبة لأنني لم أستطع الحفاظ على أشيائي وطردني من مكتبه. وقفت في وسط فناء المدرسة فشعرت به أصبح مترامياَ الأطراف، لو جريت طوال عمري لن أصل إلى آخره.

قضيت بقية حصص اليوم الدراسي معاقبا لأنني لم أحضر الكتب وكراسات الواجب، ولم يفكر أحد من المدرسين في أن يساعدني على حل مشكلة الحقيبة.

رجعت طوال الطريق ودموعي ستار أمام عيني، أرى الصور منبعجة ومشوهة، حتى أنني فكرت أن هذا هو الشكل الحقيقي للعالم.

أوصلتني خطواتي المتخبطة إلى البيت فوجدت جروا صغيرا لم يمكّني تحديد عمره بالضبط في مدخل العمارة، قابعا بمفرده في ركن بعيد، كأنه يحتمي به من قسوة الخارج، تلفت حولي لأبحث له عن أم أو أب فلم أجد غيره، مسحت دموعي وانحنيت عليه فازداد انكماشا على نفسه في خوف.

ابتسمت لأول مرة بعد أن ظللت طوال اليوم أفكر في رد فعل أبي، وفي العام الدراسي الطويل الذي سأقضيه دون كتب أو كراسات، مرت في خيالي صور كل أطفال الأفلام والمسلسلات العربية المتسربين من التعليم، رأيتني وأنا بلية في ورشة ميكانيكا سيارات، ووجهي ملطخ بالشحم الأسود، وملابسي ممزقة، ويد الأسطى تهوي على قفاي بقوة، وهو يضحك مع أصحابه وزبائنه. رأيتني واقفا في إشارة مرور أحمل بيدي فوطة متسخة أمسح بها زجاج السيارات وأتسول ما يجود به الركاب من قروش، أعطيها في نهاية اليوم للمعلمة البدينة القاسية هربا من عقاب الكي بالنار، رأيتني طفل شوارع في حديقة عامة أمسك بكيس غراء أشمه لأغيب عن الواقع.

لم ينقذني من هواجسي المرعبة سوى جروي الطيب الذي ربّتُّ عليه وحملته فاستكان بين ذراعي، نظرت إلى وجهه فرأيته جميلا، فقلت في نفسي:

- سأسميه قمر.

حملت قمر، وصعدت به إلى الشقة، بمجرد أن رأته أمي خافت منه، صرخت، فطمأنتها بأنه: طيب جدا، فهدأت قليلا، ثم سألتني حين رأتني لا أحمل غيره:

- أين كتبك؟ هل أتيت بالكلب بدلًا من حقيبتك؟

حكيت لها كل ما حدث، فقالت لي إن أبي سيضربني مرتين: مرة بسبب ضياع أشيائي، والأخرى لأنني أدخلت كلبا نجسا إلى البيت الطاهر. قلت لها إنني سأخبئه.

دخلت إلى دولابي أنا وهشام، رفعنا كل الملابس من الرف السفلي، أتيت بصندوق كرتوني ووضعته بالداخل، وقرب موعد عودة أبي من العمل، وضعت قمر بداخل الصندوق ومعه طبق صغير به ماء وطبق آخر به نصف غدائي وأغلقت عليه.. قال لي هشام إنه لا يحب الحيوانات، دون أن يدرك أنه حين يكبر سيقضي أكثر من نصف يومه معها.

دخل أبي إلى الشقة فارتبكت أمي، وظل أخي هشام يحاول كتم ضحكته، بدا على أبي الاستغراب لكنه انشغل بمداعبة سلمى الرضيعة، دخلت أمي لتعد الطعام، وتمدد هشام على الأرض ليكتب الواجب، فسألني أبي عن واجباتي، فقلت له إنني انتهيت منها، فأجلسني أمامه لأسمّع له سورة الكهف.

بدأت التلاوة مرتجفا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾، ثم انسابت الآيات وأمي تضع الأطباق، وهشام ينظر إليّ بطرف عينه بين لحظة وأخرى، وسلمى تحرك رجليها الصغيرتين في الهواء، وحين قرأت: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ ارتفع نباح قمر من الداخل، فرفعت صوتي أكثر حتى أغطي على صوت نباحه، ترك هشام ما يفعله والتفت إلينا، حرك أبي رأسه جهة اليمين واليسار، وبكت سلمى بصوت عال، خرجت أمي ووقفت بجوار أبي ونظرت لي محذرة.

سكت قمر ولم يبد على أبي الفهم، فواصلت القراءة، حتى وصلت إلى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وحينها بدأ قمر نباحا متواصلا، يزداد حدة، وأنا أحاول رفع صوتي إلى أقصى ما أستطيع: ﴿وَيَقُولُونَ

خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، تلفّت أبـي حوله متعجبا، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾.

قـام أبي وتتبع الصوت حتى وصل إلى الدولاب وفتحه فوجد الجرو وقد سكب المياه والطعام ومزق الصندوق الورقي، وجلس ينظر لنا باستكانة وخوف.

توقعت عاصفة من أبي لكنه على غير العادة، نقل عينيه بيني وبين هشام وسأل عن صاحب الكلب، فأشار هشام إليّ وهو يضحك في خبث، فخيرني أبي:

- أنت أو الكلب في البيت.

هذا الخيار ظالم، وقاس، ولا منطقي، فهل لو تركت أنا البيت واخترت بقاء قمر فيه، سيسمح له بالمكوث؟ كل الخيارات ظالمة، لكنني قررت عدم الاستسلام، فارتديت حذائي وحملت قمر، ورغم توسلات أمي لأبي ولي، ركب رأسه وجلس لتناول الغداء، وركبت رأسي وفتحت باب الشقة وخرجت، لأجد نفسي في الشارع مع قمر وحيدين.

جلست أمام باب العمارة مع قمر، ألهو به مع أبناء الجيران، ورآني أبي في نزوله لصلاتيْ المغرب والعشاء، كأنه لا يعرفني، لعبنا كثيرا حتى صعد الجميع إلى بيوتهم، وتركوني بردان وجائعا.

بعد الساعة العاشرة جلست وحيدا، لاحظت أن كلبة كبيرة تحوم حولي دون أن تقترب مني جدا، وفي عينيها نظرة حزن وقلق، فخمنت أنها أم قمر، هل أتركه لها بعدما تركته هي طوال اليوم؟ لكنها أقدر على

حمايته مني بعد أن أصبحت طريدا، هذه الكلبة الأم حياتها أسعد مني، فهي على الأقل تستطيع الحياة في الشارع دون مشاكل، أما أنا فأمامي طريق مظلم، ولن أعود إلى البيت تحت أي ظرف.

أنهيت حديثي مع نفسي وحملت قمر وقربته من أمه، ورجعت عائدا إلى مكاني لأجلس فوق حجر الرصيف، اقتربت أم قمر منه، دارت حوله وتشممته كأنها تطمئنه، ثم جرت وهو خلفها يتقافز ويهز ذيله في فرحة وينظر لي بين قفزة وأخرى كأنه يودعني أو يطمئن عليّ.

بعدها بربع ساعة نزلت أمي، احتضنتني، وقالت لي:

- أبوك لن يضربك، أخبرته بموضوع الحقيبة والكتب وسيشتري لك غيرها، احمد ربنا، واشكر الكلب، لو لم يحدث كل هذا، لضربك أبوك علقة محترمة بسبب ضياع الحقيبة.

أخذتني تحت ذراعها، ودخلنا مدخل البيت، ولم يكن لديّ ذيل لأهزه.

غبت عن المدرسة في اليوم التالي حتى أتى أبي لي بحقيبة وكتب جديدة، ثم عدت إلى المدرسة فوجدت حقيبتي موجودة بكاملها عند الناظر، وجدها عم عامر الفراش في نهاية اليوم الدراسي بجوار الحمام حيث نسيتها، ومن يومها أصبحت لديّ حقيبتان ونسختان من الكتب، وكلب، أداعبه في الشارع طوال اليوم، ويعرفه الأولاد بأنه كلبي قمر.

كبر قمر، وتزوج وأصبح أبا، ومازال محافظا على عهده معي يجري عليّ كلما عدت من المدرسة ويهز ذيله، كبرت، وكبر أبي وأمي وهشام

وسلمى، وجاءت هند إلى الدنيا، ومازلت كلما جلست أمام أبي لمراجعة القرآن، حين يسمّع لي سورة الكهف وأقرأ: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ ننفجر جميعا في الضحك حتى تدمع عيوننا، وتشيح أمي بوجهها إلى الحائط كما تفعل كلما ضحكت، وهي تقول:

- اللهم اجعله خيرا.

- 2 -

شكرا لأمي وهديتها، حين تكبر كرمة سألخّص لها ما حدث، بأن أحكي لها حكاية العصافير والقفص، نحن يا ابنتي لا نختار شيئا، نعيش هذه الحياة كزوج العصافير الاسترالية اللذين تم صيدهما من قارة أخرى، تركا حياة سعيدة ليعيشا في محل طيور زينة، تشتريهما امرأة طيبة لتقدمهما هدية لحفيدتها الأولى.

منذ دخل العصفوران بيتنا وهما يعيشان قدرا جديدا، ربما تجاوزا حزن السفر الإجباري، وألم الأسر في قفص طوله وعرضه وارتفاعه مجرد سنتيمترات، استعاضا به عن امتلاك عرض السماء والأرض في الخارج، ربما طمحا إلى تكوين أسرة، زوج وزوجة وكوخ تزاوج، ينتظران بيضة تتحول إلى عصفور استرالي سعيد، لم ير استراليا في حياته، مثلهما ربما، ليتوج قصة حبهما المأساوي، ولكن متى يا ابنتي كانت الحياة سهلة؟

ذات صباح، فتحت دينا باب القفص لتغيّر الطعام للعصفورين، فطار العصفور تاركا زوجته في القفص، حلم بالحرية، فطار لثوانٍ، دون أن يعلم أن القطة جالسة تتربص به، باعتباره وليمة ملونة جميلة، خطفته

في فمها، وجرت به في الشقة، طاردتها دينا لتخرج العصفور من فمها جريحا، يسيل الدم من تحت جناحه، كان الجرح طفيفا، فطهّرته وأعادته إلى القفص، وزوجته حائرة لا تعرف هل تشفق على ما حدث له، أم تحزن لأنه تركها وفضّل حريته، أم تلتمس له العذر، رغم أن باب القفص كان مفتوحا أمام كليهما؟ لكنها فضلت الحبس معه على الحرية بدونه، هكذا هم الرجال دائما يا كرمة.

يومان، ومات العصفور، حملتُه ووضعتُه داخل كيس صغير ولففتُه كأنني أكفّنه ثم ألقيته في علبة القمامة.

حزنت أمي حين علمت بموت العصفور، قالت إنها لابد أن تأتي بعصفور آخر مكانه، حتى لا تحزن كرمة، ولأن العصفورة لن يمكنها أن تعيش في القفص بمفردها وإلا ستجن.

بعد يومين أتى العصفور الجديد، أبيض اللون، نشيط، ومشاكس، لكن يبدو أن عصفورتنا كانت مخلصة، كلما اقترب منها تظل تضربه بمنقارها حتى تحاشاها، وصار يخشى الاقتراب منها، بعدها بيومين ظهرت عليها أعراض الحزن والمرض، ولم تكمل يوما، ماتت وراء رجلها، تاركة العصفور الأبيض وحيدا غير مبالٍ بموتها، فيما كانت قضيته الأكبر هي كيفية تحرره من القفص، يظل يدور فيه دورات كاملة طوال الوقت باحثا عن ثغرة أمنية ينفذ منها، دون فائدة.

قالت أمي إن موت العصفورة بعد زوجها كان متوقعا، ثم ذهبت مع أبي لشراء عصفورة أخرى للذكر الأبيض المشاكس في القفص، فمد

ائع الطيور يده ليهدم قصة حب نشأت في المحل بين عصفورة صفراء وعصفور أزرق، أخذ العصفورة الصفراء من حبيبها وأعطاها لأمي في قفص صغير، حملته أمي إليّ دون أن تدرك ما فعلته، لولا أن نبهها أبي وهي تناولني القفص الصغير إلى حزن العصفور، قالت إنها مجرد عصافير.

نحن أيضا يا كرمة، مجرد عصافير، لا يكترث لنا أحد، مشاعرنا لا قيمة كبيرة لها، الأهم أن تستمر الحياة، وألا نكسر قوانينها مهما تمزقت قلوبنا أشلاء هنا وهناك.

وضعت دينا العصفورة الصفراء الجديدة مع العصفور الأبيض المشاكس، ففرح فرحة اهتزت لها جدران القفص، حاول التقرب منها لكنها كانت غارقة في أحزانها، فلم تلتفت له، لكنه الزمن يا كرمة، بعد أيام استجابت العصفورة الصفراء لحب العصفور الأبيض الذي كان شديد الإصرار على إسعادها بحركاته البهلوانية، وتغريده المرتفع، بادلته الحب، ففرح قليلا، ثم ملّ سريعا بعد أن حقق ما كان يصبو إليه، أحبته وعاود هو بحثه عن حرية لن تتحقق، عاش كل منهما غير سعيد مع شريك لم يختره، في حياة أُجبرا عليها، في قفص لا يمكن الهروب منه.

– 3 –

الاسم الشائع له هو العصفور الاسترالي، ويختلف اسمه باختلاف البلد، أحيانا يطلق عليه: البادجي، أو البراكيت، أو الدرة الاسترالية، أو العصفور الاسترالي.

تم اكتشافه لأول مرة في أواخر عام 1700 ميلادية بالقرب من Parramatta في استراليا، واسمه العلمي هو Melopsittacus undulatu،

ويسمى بالـ budgerigar وهذه التسمية جاءت من الكلمة الاسترالية القديمة betcherrygah وتعني الطعام الجيد، لأن سكان أستراليا القدامى كانوا يأكلونه ويحبون طعمه.

يستطيع تخزين 150 صورة في الثانية في مخه، بينما يستطيع الإنسان تخزين 16 صورة فقط.

يرى العالم حوله بالألوان، وتستطيع الأنثى الإحساس بالجنين داخل البيضة عندما يتحرك وتشعر بالفرخ عندما يكون على وشك الفقس، ولديه القدرة على التعرف على الأشخاص وتمييزهم، ويستطيع إدارة رأسه 180 درجة.

طول الطائر البري منه: 15 أو 16 سم، والطائر المنزلي 18 سم.

واسمه العربي هو: الدرة الاسترالي، والطائر الطيب، وعاشق ومعشوق.

لأن الأبرار يضيئون كالشمس في ملكوت أبيهم

- 1 -

بكت فيروز الدكتور ميخائيل طويلا، رغم أنها لم تمكث في العيادة سوى أشهر قليلة، حبست نفسها في البيت لثلاثة أيام ثم قررت النزول.

وقفت فيروز أمام باب العيادة، وجدته مغلقا لأول مرة وملصقا عليه من الخارج قصاصة من جريدة، بها صورة كبيرة للدكتور ميخائيل مكتوب أسفلها:

"الأبرار يضيئون كالشمس في ملكوت أبيهم، أبانا العزيز الدكتور ميخائيل يسي أندراوس، كنت نعم الأب في حياتنا، بنقاء القلب عشت معنا، وبهدوء الملائكة رحلت عنا، فقد خسرناك سندا على الأرض، وربحناك شفيعًا في السماء، فلن ننساك حتى نلقاك، وهنيئا لك بالملكوت السماوي، صلّ لأجلنا.

تدعو الأسرة الأهل والأصدقاء لمشاركتهم القداس الإلهي لروحه الطاهرة، الثامنة صباح الأربعاء القادم بكنيسة رابطة القدس بالظاهر".

- 2 -

تقرر فيروز شراء كفن، لا تتوقع أن تموت في وقت قريب، ولم تفكر قبل هذه اللحظة في تفاصيل الموت الدقيقة، كالكفن والقبر والغسل، لكنها تكتشف فجأة أنها لن ترتدي بعد موتها إلا ثوبا واحدا، لهذا لابد أن يكون من اختيارها، لن تترك مهمة اختيار ثوبها الأخير لشخص لا تعرفه، ما تراه في أحلامها أنها ستموت في شقتها دون أن يشعر بها أحد، حتى يشكو الجيران من رائحة جسدها التي ستنبعث من أسفل باب الشقة، ستحطم الشرطة الباب تماما حتى تستطيع التغلب على الكالونين والمزلاج الكبير التي توصدها كلها بإحكام.

تحب أن تموت في الخامسة والخمسين تحديدا، أي بعد عشر سنوات من الآن، تفضل الثانية عشرة صباحا، سترتدي يومها بيجامتها الحريرية البيضاء التي تحبها لدرجة أنها لا تلبسها خوفا من أن يفسدها الاستعمال، ستتصل بابنتها لتقول لها: خل بالك من نفسك، ثم تخبر 10 أشخاص لا تعرفهم ولا يعرفونها في التليفون أنها ستموت، تأكل جيدا وتشرب الشاي، ثم تنقل السرير إلى منتصف الصالة، وتتمدد عليه، وتموت.

انتقالها إلى العالم الآخر لابد أن يكون أنيقا، تستبعد فكرة الورود، لأنها تذبل سريعا، أغنية لمحمد عبد الوهاب، من غير ليه تحديدا تصلح خلفية موسيقية جيدة، ستفرش الأرض حول السرير بكل أشيائها وملابسها التي تحبها، وستسكب على جسدها كل عطورها التي تحتفظ بها منذ سنوات وتخشى استعمالها حتى لا تنفد، هذا سيؤخر اكتشاف

رائحتها لفترة، وربما تنجح العطور الباريسية باهظة الثمن في التغلب على رائحة الجسد فلا يكتشف موتها أحد.

في البداية سيتلكأ من يمر أمام باب الشقة ليستنشق الرائحة الزكية المنبعثة، وحين تتغلب شيئا فشيئا رائحة الموت سيهربون منها.

لن يهتم أحد بموتها، فخبر من ثلاثة أسطر في جريدة مغمورة عن العثور على جثة متحللة لامرأة خمسينية تعيش بمفردها لن يثير شهية أحد ليقرأه، ربما تبكي ابنتها لخمس دقائق، بينما يضحك حفيدها الذي لم تره ولم يرها، ويطالب أمه أن تقوم لتشاركه اللعب فتقوم.

تقرر أنها لن تترك شيئا للصدفة، تحضر اللاب توب وتدخل على صفحة التقويم، الرابع من أكتوبر، عيد ميلادها بعد 10 سنوات سيكون يوم ثلاثاء، ستترك آثار الاحتفال بعيد ميلادها الخامس والخمسين كما هي، ثم تنهي حياتها بنفسها في اليوم التالي، كل من يراها يقدر عمرها دائما بأقل منه بعشر سنوات، إذن ستبدو بعد عشر سنوات كأنها في الخامسة والأربعين، أي كما هي الآن، أمامها 10 سنوات لا تدري ماذا ستفعل بها، لكنها تراها فترة كافية حتى تؤقلم نفسها على تقبل الوضع الجديد بعد الموت.

تذهب إلى محل أقمشة وتشتري 10 أمتار حرير أسود، تحملها إلى محل لتفصيل ملابس الزفاف، تطلب من صاحبته أن تطرزه لها بالكامل، تدفع العربون وتأخذ إيصالا مطبوعا فيه: قيمة تفصيل فستان زفاف، وتفكر وهي خارجة: لماذا يكون لون فستان الزفاف أبيض، بينما تكون بدلة العريس سوداء؟

- 3 -

قبل وفاة أمها وقفت فيروز أمام باب غرفة العناية المركزة الأبيض.

في الأفلام القديمة لم يكن الباب مصمتا هكذا، كانت توجد به دائرة زجاجية تسمح للواقف بالخارج أن يرى من بالداخل، وكانت الغرفة لا تتسع إلا لمريض واحد، لكن أمها ترقد بالداخل، وعلى السرير المجاور لها امرأة عجوز، تعدت التسعين من عمرها، أدخلوها بعد أمها بنصف ساعة.

منعها الأطباء من الدخول، وأقرب مجموعة مقاعد توجد في نهاية الطرقة، بعيدا عن الغرفة، ففضلت الوقوف أمام الباب مباشرة.

أذان العصر يرتفع من مكبر صوت جامع المستشفى، ترشو فيروز الممرضات حتى يسمحن لها بالوقوف أمام الغرفة منذ التاسعة صباحا، حتى أذان المغرب، فوقت الزيارة المسموح من الثانية إلى الرابعة عصرا فقط، وكلما مرّ مدير المستشفى يدفعنها لتختبئ في الحمام، ثم يخرجنها بعد أن يذهب.

تخرج ممرضة من الداخل، وتسألها:

- أمك.. هي العجوز أم الأصغر قليلا؟

- الصغيرة، لماذا؟

- الكبيرة ماتت.

تأتي ممرضتان أخريان، ويدور بين الثلاثة حديث:

- ألا يوجد مرافق مع المرأة العجوز؟

- لا.. لا أحد معها.

تشعر فيروز بخدر في جسدها، وتسقط على الأرض، فيساعدنها لى النهوض، يجلسنها على الكراسي في نهاية الطرقة ويتركنها، بعدها نليل يمر من أمامها ترولي المستشفى وعليه جسد نحيل مغطى تماما دفعه ممرض، فتغمض عينها، وترجع رأسها إلى الخلف، تسمع صوت لممرضات يهتفن:

- مدير.. مدير.

تقوم، وتذهب ببطء إلى الحمام، تدخل وتغلق الباب خلفها، وتنخرط في البكاء.

تغسل وجهها بالماء وتخرج بحذر، ثم تجلس على المقعد، فيمر الترولي من أمامها عائدا يدفعه الممرض نفسه، وعليه مريضة في نفس عمرها وخلفها امرأة يبدو أنها أم الفتاة، ترتدي جلبابا أسود وتربط رأسها، ترى فيروز أن الترولي متجه إلى غرفة أمها، فتقوم مسرعة حتى تراها عندما ينفتح الباب.

تأتي ممرضتان وطبيب كبير في السن، تسير خلفهما، وترى أمها من فرجة الباب ممددة على السرير، ترتدي جلبابا أبيض، والمحاليل متصلة بيدها، وبجوارها جهاز رسم القلب يرسم خطوطا متعرجة.

تعدل الممرضتان وضع ملاءة السرير الذي غادرته العجوز منذ دقائق، ويتعاونان في إنزال الفتاة الجديدة من الترولي، والمرأة تقف بجسدها

في الباب تمنع انغلاقـه، يلمحها الطبيب، فيشـير لإحـدى الممرضتين بعصبيـة أن تخرجهـا دون أن يتكلم، تخرج المرأة وهـي تحرك يديها في كل الاتجاهـات، وتتكلـم بصوت عال كلامـا غير مترابـط، تجلس على الأرض أمام الباب، وبمجرد أن يخرج الطبيب تنهض إليه بسرعة:

- أنا لا أفهم أي شيء يا دكتور.. ما مرض ابنتي؟

يطردهـا الطبيـب من أمـام غرفـة العناية المركـزة، فتنحنـي على يده تقبلها، وهي ترجوه أن يبقيها:

- خلاص، لا أريد أن أعرف.. لكن اتركني بجوارها.

ينصرف الطبيب، ويأتي طبيب شـاب، يرى المرأة وهي جالسـة على الأرض تبكي، فينظر إلى فيروز ويقول لها:

- حاولي أن تهدئيها.

تتردد فيروز قليلا، ثم تمد يدها للمرأة تساعدها على النهوض، فتقوم المرأة بصعوبة وثقل جسدها يكاد يخلع ذراع فيروز، ثم تسيران جنبا إلى جنب صامتتين.

تشتري لها فيروز زجاجة بيبسي، تشربها المرأة بسرعة، وتشعل فيروز سيجارة، فتنظر لها المرأة بدهشـة للحظـة ثم تتجاهل دهشـتها وتحكي لها:

- ابنتـي اسـمها أسـماء، دخلـت غرفة العمليـات السـاعة 8 صباحا، لتجـري عمليـة الزايـدة، انتظرتهـا 7 سـاعات، بعدها خـرج الجميع من الغرفة ولا أحد يريد أن يبل ريقي بكلمة.. أسـألهم ما الأمر يا دكاترة.. ما

الأخبار يا ممرضات.. أين أسماء؟.. ولا أحد يرد، في النهاية نقلوها إلى الغرفة التي كنت تقفين أمامها دون أن يشرحوا لي.

تلقي فيروز عقب السيجارة، فتمد المرأة قدمها بحركة لا إرادية وتدوس عليه، تسألها:

- ما هي هذه الغرفة؟

- العناية المركزة.

- هل هذه غرفة بعد العمليات؟

- العناية المركزة تعني الإنعاش.

تصمت المرأة دون أن يبدو عليها الفهم، ثم تقومان وتتجهان إلى الداخل.

تجلس المرأة على الأرض أمام باب العناية المركزة، تخرج من صدرها راديو ترانزستور صغيرا، بحجارة خارجية مربوطة فيه بأستك، تشغل إذاعة القرآن الكريم، تلصقه بأذنها، ثم تنزله بعد قليل، وتشير إلى فيروز الواقفة حتى تقترب منها:

- بعدما خرجت ابنتي من العمليات وقبل أن ينقلوها إلى هنا، جعلوني أبصم على ورقتين لا أعرف ماذا بهما.. ابنتي كانت مثل الحصان.. كانت حلوة مثلك.

تلصق المرأة الراديو بأذنها مرة أخرى، وتفكر فيروز في أن المرأة لم تسألها لماذا تقف هنا هكذا، فتقول لها:

- أمي بالداخل، مع ابنتك.

لا تنزل المرأة الراديو الذي ألصقته بأذنها وتقول:

- ربنا يشفيها وتقوم لك بالسلامة.

يؤذن المغرب من مكبر جامع المستشفى القريب جدا.

الله أكبر

الله أكبر

يمر أفراد من الأمن، يخرجونهما دون اكتراث بصراخ الأم وبكائها، تفهمها فيروز أنه لا يمكن البقاء بعد المغرب، تسألها:

- من أين أنتم؟

- من أبو كبير في الشرقية.

- وماذا ستفعلين؟

- سأنام على الرصيف أمام المستشفى حتى الصباح.. وأنت ستعودين إلى البيت؟

- نعم.

تفترقان أمام باب المستشفى، فكرت فيروز أن تأخذ المرأة معها، ثم تراجعت، وقررت أنها لن ترجع إلى البيت.

ظلت تسير في الشوارع طول الليل، تذكرت حين أخذتها أمها إلى استوديو مصر لتمثل، لماذا تراجعت من بداية الطريق؟ لماذا لم تكمل؟

بعد أن كبرت قليلا أدركت أنها وهي صغيرة كانت تشبه ملامح شيرلي تمبل أكثر من فيروز الصغيرة، وكل من رآها تؤدي الدور الصغير في مسرحية الجامعة أعجب بها، لماذا تراجعت؟

ظلت تقرأ لافتات المحلات المختلفة، وتراقب الرجال العائدين إلى منازلهم في هذا الوقت المتأخر، ربما لو كانت أمها أكملت معها الطريق لأصبحت مشهورة أكثر من فيروز نفسها، تذكرت أباها الذي حصرها في هذا الاسم وهذه الشخصية، حتى صارت جزءا منها.

تغني بصوت خافت يرتفع أكثر في المناطق الخالية من البيوت:

معانا ريال.. معانا ريال

ده مبلغ عال ومش بطال

- 4 -

يؤذن الفجر، فتستوقف تاكسيا، وترجع إلى البيت.

في الصباح تذهب إلى المستشفى فتجد المرأة الريفية جالسة على الأرض أمام العناية المركزة، وأمامها على الأرض كاسيت صغير بدل الراديو، وبيدها شريطان: تتهلل المرأة عندما تراها، وتلوح لها بالكاسيت والشرائط:

- مر زوجي عليّ في الصباح به.. وأحضر لي بطاريات.

تفتح الباب الخلفي لتريها 4 حجارة طورش متراصة بداخله، وعليها رسم القط الأسود، ثم تغلق الباب، وترفع يدها بالشريطين:

- المنشاوي، والطبلاوي.. وبالداخل عبد الباسط.

تبتسم فيروز، وتأتي الممرضة، تزعق في المرأة، وتأمرها أن تقوم:

- قلت لك عشرين مرة قومي من على الأرض.. الدكتور لو رآك سيرميك بالخارج.

تمد المرأة يدها لفيروز، فتمسك بيدها وتجذبها، تقوم ويسقط منها الشريطان على الأرض فيصدران صوتا عاليا، فتلوح الممرضة بيديها وهي تنصرف.

يأتي الطبيب الشاب، يبتسم لفيروز ويدخل الغرفة، تقف كل منهما على جانب من الباب، فيخرج وهو يضع وجهه في الأرض، ويقول:

- البقاء لله.

تصمتان تماما، وتصرخ المرأة:

- من؟

يظنهما معا فيتركهما وينصرف. يختلط صوت بكاء المرأة بصوت القرآن الذي ارتفع فجأة من المسجل:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

انسحبت فيروز إلى الخلف حين انهارت المرأة من شدة البكاء، تجاهلت صوت نحيبها، وأنصتت إلى المقرئ، وجدت صوته عذبا، وصوت المرأة في الخلفية مؤثرا.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

يختلط صوت القرآن بنحيب المرأة بصوت صرير عجلات الترولي القادم من آخر الطرقة يدفعه نفس الرجل، وبجواره الممرضة التي تدخل إلى الغرفة، ثم تخرج، وتقف في المنتصف بين فيروز والمرأة، ثم تستدير نصف دورة فتعطي ظهرها للمرأة ووجهها لفيروز، وتقول بصوت مرتفع:

- أمك أنت التي ماتت.

تنظر لها فيروز للحظات غير مدركة، وتطلق المرأة الريفية زغرودة عالية.

-5-

جمعت فيروز أشياءها من العيادة حين أعاد جرجس فتحها ليعرضها للبيع حتى يذهب ثمن الشقة إلى الورثة، كان هناك سمسار يصوّر الشقة من أكثر من زاوية، ليعرضها على الإنترنت، وجرجس يسير معه يبدو عليه الانكسار بعد رحيل ميخائيل، ابتسمت فيروز وهي تتذكر أنها كانت تنادي ميخائيل بينها وبين نفسها بـ"ميخا" كعنوان بريده الإلكتروني الذي أنشأه له شاب عابث ولابد.

جمعت فيروز كل الأسئلة والردود التي لم يتم إرسالها للموقع، قررت أن تؤجل إخبار الموقع بموت ميخائيل إلى ما بعد نشر كل الأسئلة والأجوبة، حتى تتقاضى أجرها، فكرت أنها بهذا لن تضر أحدا.

ذهبت فيروز إلى البيت، صنعت لنفسها كوب شاي، شغلت مقطعا لأم كلثوم من أغنية دارت الأيام على يوتيوب، ثم شردت وهي ترسل

الإيميل للموقع، ظلت الأغاني تتوالى من الـ autoplay وأرسلت الأسئلة وإجاباتها للموقع على البريد الإلكتروني من إيميل الدكتور ميخائيل، حتى أتتها رسالة الرد:

شكرا جزيلا لحضرتك يا دكتور ميخائيل، سوف يتم نشر الإجابات سريعا وسنرسل لحضرتك الدفعة الجديدة من الأسئلة غدا صباحا.

أسقط في يد فيروز حين قرأت أنهم سيرسلون لها الأسئلة الجديدة، ولم تدر بماذا ستتحجج لهم حول عدم إجابة الدكتور ميخائيل على الأسئلة في موعدها حتى يأتي موعد إرسال النقود لها.

أغلقت الإيميل وهي تفكر، سمعت من اللاب توب أغنية أحمد عدوية التي أتت في الخلفية ولم تنتبه لها وسط انشغالها.

وجينا نبعد.. قالوا لنا نقعد

وجينا نقعد.. شَدّوا الكراسي

المرأة الحمل.. والرجل العذراء

- 1 -

- فأر، فأر، فأر.

هكـذا صرخت دينا، وهي تجري خارجة من المطبخ نحو غرفة النوم حيث أتمدد على السرير ألاعب كرمة ذات الستة أشهر، لم تهدأ صرخات دينـا حيـن وقفت أمامنـا، مما دفع كرمة إلـى الانتباه وأشـعرها بخطر ما، ضحكتُ من هيئة دينا المذعورة، فاستاءت من ضحكاتي، قلت لها:

- إنه مجرد فأر.

حاولـت دينا التماسـك، صمتتْ للحظات فكرتْ فيهـا حتى أدركتْ من أين تؤكل كتفي، قالت إنها لا تخاف من الفأر، لكنها تشمئز منه، لكن خوفهـا الحقيقي على كرمة، وحكت لي ثـلاث حكايات على الأقل عن فئـران قضمـت أصابع أطفـال ورضّع، نظـرت إلى أنامل كرمـة الصغيرة وأصابـع قدميها بقلق، ثم قمت مسـرعا نحو المطبخ، فبدت على شـفتي دينا ابتسامة انتصار لم تنجح في تبديد خوفها البادي.

دخلت المطبخ متسـلحا بعصا الممسـحة، أطارد عـدوا خفيا لا أراه، وصوت دينا يأتيني من بعيد موجها:

- فوق البوتاجاز، تحت الحوض، بجانب دولاب المطبخ، أسفل الثلاجة، في دولاب الخزين.

أتخيل نفسي محارب ساموراي، أنحني، وأرتفع، وأقفز، أتمدد أرضا، وأطير في الهواء، تلاشى صوت دينا، وشعرت أنها معركتي الأولى لحماية ابنتي من كوارث العالم الخارجي، جنيت على كرمة بالإتيان بها إلى هذه الحياة، على الأقل فلأضمن لها سلامة أصابعها.

أكثر من نصف ساعة، ولم يخرج الفأر ليواجهني، أو يريني حتى طرف ذيله، خرجت منكسا سلاحي، وأعلنت لدينا هزيمتي في هذه الجولة، ووعدتها بأن أنتصر عليه في جولة مقبلة، لكنها ضمت كرمة إليها بقوة في رعب، وقالت لي بلهجة حاولت أن تجعلها مقنعة إلى أقصى درجة:

- ومن أدراك أنه الوحيد؟

اتصلت أمي في هذه اللحظة، سلمت عليّ وعلى دينا، وشعرتْ بأننا لسنا على ما يرام، فسألت:

- ما لكم؟

أخبرتها بأمر الفأر، فأكدت كلام دينا بأنه ربما تكون هناك فئران أخرى في الشقة، أغلقنا الهاتف، وحاولنا البحث دون جدوى.

قسمنا الليلة إلى نوبات حراسة، نمت ساعتين، سهرت فيهما دينا بجواري أنا وكرمة في رعب تراقب الجدران، وأسفل الباب، والنافذة

المغلقة، وتنحني لتنظر تحت السرير، وتنظر إلى أصابعنا وأنوفنا لتتأكد أنها في أماكنها، حتى انتهت نوبتها وقالت لي:

- استيقظ.. الشيفت بتاعك.

لم تنم دينا في شيفت الحراسة الخاص بي من فرط قلقها وظلت تراقب مكامن الخطر التي حددتها، فأتيتُ برواية الحرافيش لنجيب محفوظ وجلست أقرأها بجوارها:

وازداد الجو عبوسة ودمامة، وامتطت الأسعار الجنون، ندر الفول والعدس والشاي والبن، واختفى الأرز والسكر، وتدلل الرغيف، وندت عن الأعصاب المرهقة بوادر استهانة، فتعددت السرقات، وتعاقب خطف الدجاج والأرانب، وبعض السائرين ليلا نهبوا أمام بيوتهم، وانبرى رجال العصابة ينذرون ويهددون، ويدعون إلى الأخلاق والتضامن بحناجر قوية وبطون مكتنزة.

نامت دينا جالسة، انحنيت على كرمة قبلتها، ثم قمت إلى المطبخ لأحضر كوب ماء، فوجدت نفسي وجها لوجه أمام الفأر، بدا صغيرا، مذعورا، لا يدري سر هلعنا منه، ولا يعرف جريمته، ولا لماذا هو هنا، ولا من نحن، فكرت أن هذا الفأر مثلي، ومثل دينا، وكرمة، كل ما يريده هو أن يعيش في سلام، لكنني بعد مطاردة قصيرة قتلته، وأمسكته من ذيله بمنديل ورقي لأري جثته لدينا حتى تهدأ.

دخلت الغرفة، وربتُّ كتفها أوقظها ففتحت عينها على جثة فأر أمام وجهها، صرختْ وجرتْ من أمامي، ليظل هذا الموقف، من مواقفنا التي كثيرا ما نسترجعها لنضحك.

- 2 -

في يوم الصباحية زارنا أهلي وأهل دينا زيارة خاطفة روتينية، ثم نزلوا، فأتت دينا بكتاب عن الأبراج، جلست بجواري، وأسندت ظهرها إلى صدري ثم قرأت بصوت مرتفع:

علاقة المرأة الحمل بالرجل العذراء متكاملة، يتفاهمان وينجحان في الحب والحياة العائليّة. المرأة الحمل مغرمة بأناقة الرجل العذراء، ولياقته، وأسلوبه الرومانسي في الحب واهتمامه بتفاصيل حياتها، وتستطيع الحمل أسر الرجل العذراء في حبها وعالمها، وتمنحه الحرية من وقت إلى آخر ليعود اليها أكثر شوقا. وينجذب الرجل العذراء إلى المرأة الحمل لجمالها وأناقتها، ويعجبه ذكاؤها وشخصيتها وفلسفتها للأمور، وثقتها في نفسها، لذا يتوق للزواج منها، فهي المرأة الكاملة في نظره، وفي استطاعتهما تأسيس بيت سعيد.

اطمأنت دينا إلى رأي الأبراج في زواجنا، مضت أيام الزواج الأولى هادئة، يكتشف كل منا الآخر، ويحاول أن يبذل مجهودا للتخلص من تكلف فترة الخطوبة، حتى بدأت دينا محاولاتها لتعلم الطبخ من كتاب دليل الأسرة في الطبخ الحديث، ندخل المطبخ معا، أساعد وأفتي بقدر ما أستطيع، وتلتزم هي بتعليمات الكتاب حرفيا، وإن صعب علينا شيء اتصلت بأمها، لنختم كل يوم بمكالمة لمحل فطاطري القدس الكائن في طرف شارعنا نطلب منه 2 بيتزا شرقي، حجم وسط، واحدة بالسجق، والأخرى بالدجاج والمشروم، وفطيرة صغيرة بالسكر واللبن من أجل التحلية، نأكل ونحن نضحك وتعدني

دينا بأمجاد جديدة في المطبخ في اليوم التالي حتى اصطحبت معي كتاب الطهي ذات مرة أثناء نزولي إلى العمل، خبأته تحت قميصي ملتصقا بجلدي، ولم أخرجه إلا وأنا على طرف الشارع أمام محل القدس، رميته في صندوق قمامة موضوع أمام مطعم البيتزا، وتنفست الصعداء.

ظلت دينا بعدها تبحث عن الكتاب، وهي تكاد تجن من اختفائه، وذات يوم حتى أنسيها كل ما حدث، قلت لها فجأة:

- هيا نتناول العشاء في الخارج احتفالا بمرور ثلاثة أشهر على زواجنا.

فرحت دينا وارتدت ملابسها على عجل، ذهبنا إلى محل وجبات سريعة تحبه، أكلنا، وطلبنا الحساب، تركت لها النقود وقلت لها سأذهب إلى الحمام.

خرجت من الحمام لأجد شخصا غريبا يسحب كرسيًا ويجلس أمامها على الطاولة يحاول أن يكلمها، فهمت الوضع سريعا، وقدرت أنه سيكون موقفا ضاحكا، فتوجهت بهدوء نحو الطاولة وجلست معهما، ودينا تنظر لي باستغراب من رد فعلي، مما دفع الرجل ليسألني:

- من أنت، وماذا تريد؟

أخبرته أنني زوجها، فنقل الرجل نظره بيننا في إحراج وخوف ثم قام متعجلا، فأسقط الكرسي الذي كان يجلس عليه، وحين حاول أن يعدله تعثر وكاد يسقط، فترك الكرسي مقلوبا وخرج من المحل كله، وأنا ودينا منفجران في الضحك.

خرجنا في حالة من الانتشاء، وضعت ذراعي على كتفها، ووضعت هي ذراعها حول خصري، سرنا ونحن نغني كل ما يخطر على بالنا من أول أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، حتى عمرو دياب وهشام عباس وراغب علامة، وحين اقتربنا من البيت وجدنا جلبة شديدة، وثلاث سيارات: شرطة، وإطفاء، وإسعاف، تحت عمارتنا مباشرة، قلقت دينا من أن تكون عمارتنا قد أصابها مكروه، فضحكت وقلت لها وهل سيترك المكروه كل العمارات الموجودة في العالم ليصيب عمارتنا تحديدا، وأكدت لها أنها ربما تكون العمارة المقابلة أو المجاورة.

اقتربنا من الجمع المحتشد، الذين التفتوا جميعا إلينا مع نظرة عم رشدي البواب، الذي أشار إليّ مباشرة وقال للضابط الواقف بجواره:

- هذا هو الأستاذ صاحب الشقة المحروقة.

- 3 -

لم تحترق الشقة، ولم ينقذني من همّ الإجراءات، ومحضر إزعاج المطافئ، الذي أصر عليه ضابط الحماية المدنية، سوى دينا التي فقدت الوعي بمجرد أن سمعت أن شقتنا احترقت.

فهمت بعدها أن دينا قررت يومها أن تفاجئني حين علمت أنني أحب حمص الشام فوضعته على النار، وحين فاجأتها أنا بقرار العشاء بالخارج نسيته تماما، فاحترق الحمص والإناء وتسببا في دخان كثيف خرج من شباك المطبخ والصالة المجاورة له، فظن الجيران أن الشقة تحترق، فأبلغوا النجدة والمطافئ والإسعاف.

قبل حضورنا كسر رجال الحماية المدنية باب الشقة وأطفأوا البوتاجاز، وضعوا الحلة المحترقة في الحوض، وفتحوا عليها المياه، بحثوا في الداخل عن جثثنا المختنقة أو المحترقة كما قدّر الجيران، فلم يجدوا شيئا، فطلب الضابط اسم من اتصل للإبلاغ ليغلق المحضر فتهرب المتصل حين شعر بوجود مسئولية، حتى ظهرت أنا ودينا أمامهم، فطلب مني الضابط نقودا قال إنها رسوم انتقال سيارة المطافئ، حتى لا يحرر ضدي محضر بلاغ كاذب، فزعقت فيه وقلت له إنني لم أبلغ عن شيء، فقال إنني المسئول، لكن إغماء دينا، ومحاولات المسعفين إفاقتها، وعلمه بأنني صحفي جعله يقدم لي محضرا وقعت عليه دون أن أقرأه.

وقفنا بعدما أفاقت دينا وطمأنتُها على الشقة، نشاهد انصراف موكب سيارات الإنقاذ، أمسكت دينا بيدي بقوة وبكت، ثم انفجرنا في ضحك هيستيري جعل البواب والجيران يضربون كفا بكف، وهم يظنون أننا مجانين.

- 4 -

تسألني دينا دائما:

- هل تحبني؟

وحين أجيبها بنعم، ألمح في عينيها نظرة متشككة لم تغب أبدا، أقسم لها، فتتظاهر بأنها صدقتني، أحضنها، فتحضنني، وهناك لوح زجاجي سميك بيننا.

ليلة في مكتب محام

انقطعت عني بسنت شهرين كاملين بعد موقف اقتحام وليد ابن خالتها لشقتي في هرم سيتي، تليفونها مغلق، ولا تخرج من البيت، حاولت الاتصال بأمها وحتى بوليد نفسه لكي أصل إليها دون فائدة، لا تدخل على الفيس بوك ولا أعرف هل تفتح الإيميل أم لا، أرسلت لها خلال الشهرين أكثر من مائة رسالة دون أي رد.

شعرت بوحدة مبالغ فيها، واكتشفت أنني أسقطت حتى صداقاتي العابرة، مكتفيا بتأرجحي كبندول بين دينا وبسنت.

كثفت من زياراتي لدينا فأظهرت امتنانا حقيقيا لي، وأصبحت الأمور بيننا هادئة نوعا، لم نرجع، ولم نتفق على الرجوع.

أثناء نزولي من الجريدة بعد يوم عمل متعب قابلت زميلتي هناء، محررة قسم الفن، نشأت بيننا علاقة غريبة قبل 3 سنوات، بدايات حب، وبدايات علاقة لم تكتمل، ذهبت إليها في بيتها في منطقة حلوان الشعبية مرة، ولم يكتمل بيننا أي شيء.

"هناء أرملة أحد مشاهير صحافة اليسار، تزوجها بعد علاقة دامت عامين، كان يكبرها بعشرين عاما، مات في حادث انقلاب سيارة في

ترعة، وهو في الطريق لزيارة أهله في بلدتهم النائية، ورثت هناء عن زوجها شقة بسيطة في حارة شعبية بـ"حلوان"، عاشت فيها بعد وفاته ولم تتزوج، رغم أن كثيرين من قيادات العمل الصحفي من مديري تحرير، ورؤساء تحرير تنفيذيين، ورؤساء تحرير تقدموا لها كزوجة ثانية سرية، إلا أنها ظلت ترفض بانتظام.

قابلتني هناء تحت الجريدة وأخبرتني أنها عائدة من المستشفى، لإصابتها بهبوط في الدورة الدموية فجأة وهي في الجريدة، أخبرتني أنهم علقوا لها محاليل حتى عاد ضغط الدم إلى مستواه الطبيعي، وعادت لتأخذ أشياءها، طلبت مني على استحياء أن أوصلها إلى منزلها لأنها تخاف أن تتعب مع سائق غريب لو استقلت تاكسيا، وافقتُ على مضض، فالمسافة من المهندسين إلى حلوان، ثم من حلوان إلى أكتوبر يجوز معها قصر الصلاة والإفطار في رمضان.

ركبنا السيارة، ذكرتني هناء ببدايات مناوشاتنا التي لم تكتمل، قالت إنها كانت معجبة بي لأني أشبه حبها الأول في المنصورة حيث ولدت ونشأت.

ظل رأسي يتأرجح من فرط هجوم النوم عليّ وأنا أقود، تثاءبت حوالي عشرين مرة حتى أوصلتها إلى البيت، فعرضت عليّ أن أصعد وأشرب كوبا من القهوة المغلية حتى لا أنام في طريق الرجوع، ترددت قليلا، خفت من الحارة الشعبية التي تسكن فيها فطمأنتني أن البيت به عيادات لـ3 أطباء أسنان، ونساء وتوليد، وعظام، ومكتب محام، ولا أحد سيسألني في الصعود أو النزول بشرط ألا أصعد أو أنزل معها.

صعدنا على طريقتها، سبقتني وصعدت خلفها، وحين سألني البواب العجوز عن وجهتي أخبرته بصعودي إلى مكتب المحامي، فأشار لي بالصعود غير مكترث.

دخلت شقة هناء فطار النوم من عيني قبل أن تحضر لي فنجان القهوة وقد استبدلت ملابسها بملابس البيت، حكت كثيرا عن حياتها، حتى أنني سألت نفسي عن الشيء المغري في وجهي ليجعل الجميع يحكون لي، بكت هناء وارتمت في حضني، قضينا ليلة مؤجلة منذ 3 سنوات، لم يحيرني فيها سوى تحديد هل أوجِّه شعوري بذنب الخيانة تجاه دينا أم بسنت أم كلتيهما؟

استيقظت في الصباح على صوت عال يأتي من الحارة، نظرت من خلف الشيش، فرأيت حمارا بين ذراعي صندوق عربة خشبية مستطيلة بعجلتين، يجره رجل عجوز في تعب، يصفِّر كثيرا بصفارة لا يسقطها من فمه، إلا حين يرفع صوته الواهن:

- الفووووووووول.. البليلة.

قامت هناء وارتدت جلبابا أصفر خفيفا، جمعت شعرها المنكوش بتوكة بلاستيك صغيرة على شكل سرطان البحر، فتحت الشيش، ثم دلّت السبَت.

الحمار وقف أسفل الشباك تماما، وأصدر نهيقا عاليا متصلا بسرعة خوفا من صاحبه الذي ظل يلكزه في جنبه بعصاه، رافعا صوته وصوت صفارته بأقصى ما يستطيع، ليداري على صوت حماره:

- الفووووووول.. البليلاااااااااااااااااااه.

تحسست هناء الجلباب على جسدها، وأغلقت فتحة الصدر بيدها

وقالت:

- أعوذ بالله م الشيطان الرجيم.

بمجرد أن انتهى النهيق رفعت هناء صوتها بأقصى ما تستطيع، دون مبرر، طلبت من البائع بجنيهين فول، وجنيهين بليلة، وأن يتوصى.

عادت بالفول والبليلة وقالت:

- نفطر قبل أن ننزل.

شعرت بألم شديد في عظامي، أخبرتها فقالت:

- من المروحة.

رغم أنها قامت أول ما رحت في النوم، أطفأت مروحة السقف، وغطتني بملاءة خفيفة، وحين شعرتْ أنني أتململ من الحر وأوشك على الاستيقاظ، أعادت تشغيلها على أقل درجة، عرتني من الملاءة، ووضعت على جسدي برفق شديد كوفرتة أثقل قليلا.

لم تكن تعلم أني أفقت منذ الحركة الأولى، وأنني أتنفس بهدوء حتى لا تنتبه إلى متابعتي لها، خلعتْ ملابسها، شربتْ، ووضعتْ زجاجة الماء على الأرض بجوار السرير في متناول يدها، كانت تغني بصوت خافت:

أنا اللي زماني عاداني.. وباعني واشترى فيا.

فكت ضفيرتيها، تحسستْ جسدها، وهي لا تتوقف عن الغناء، تمددت إلى جواري، جذبتْ طرف الغطاء فلم يغطها بالكامل، نامت مباشرة، وضمت جسدها الطويل في نومة جنينية، وتقلبتْ فتعرتْ، وحين سقطت كفها من حافة السرير ارتعدتْ وارتدتْ بحركة عنيفة إلى الداخل، كمن سيسقط من ارتفاع شاهق.

فردتُ الغطاء كله عليها، الرطوبة مرتفعة، والحر خانق، قطرات العرق تلمع بطول ظهرها، وتتساقط من جسدي على المرتبة، لن أتمكن من النوم إلا إذا أخذت دشا باردا، فكرت في أن أقوم وأزيد درجة المروحة، لكنني تكاسلت.

وهي تتقلب جاءت يدها على ظهري فقامت مذعورة، تحسستني:

- نايم عريان؟

ثم راحت في النوم مرة أخرى.

وأنا نمت، بعد وقت، انتفضتْ، وأمسكت بذراعي بقوة:

- اللهم اجعله خيرا.

قامت، ودخلت الحمام، دون أن تغلق الباب خلفها، كان صوتها عاليا، خرجتْ، ودخلتْ المطبخ، خبطتْ قليلا في الأكواب والملاعق، ثم عادت بكوب ماء بسكر، شربته على السرير، ووضعتْ الكوب الفارغ بجوار الزجاجة، أعادت فرد الغطاء فوقنا معا بطريقة محكمة، ثم قامت بعد لحظات، بحثت بيدها عن شيء تلبسه، لم تجد سوى قميصي،

فارتدته، تذكرتْ أنها كانت تغني، فاستأنفتْ الأغنية من المنتصف كأنها لم تنم ولم تستيقظ.

وقفت هناء تعد الإفطار في مطبخها الصغير، ارتديت ملابسي وهي تكلمني عن كل من تحرشوا بها في بلاط صاحبة الجلالة بدءا من الجيل القديم حتى صغار المحررين.

دخلتُ الحمام، فطرقتْ الباب علي:

- أنت قافل باب الحمام؟

- عادي.

- افتح طيب.

فتحتُ بعد أن انتهيت، أفطرنا إفطارا شهيا، سأظل أذكر مذاقه الجميل لفترة طويلة، أكلتُ كثيرا، ولاحظتُ أنها لا تحاول ارتداء ملابس الخروج فسألتها:

- ألن تذهبي إلى العمل؟

- سأتصل بهم.. وآخذ اليوم إجازة.. أريد أن أنام.

ارتديت حذائي، وعلى الباب سألتني هناء:

- ستأتي لتوصلني مرة أخرى؟

ضحكت وقلت:

- أكيد.. لا تستبعدي أن أوصلك كل يوم.

نزلتُ بمفردي، فأوقفني البواب فجأة، فاضطربتُ، سألني هل قضيت ليلتي لدى المحامي، استجمعت أعصابي ومزحت معه، أعطيته خمسين جنيها، ونصف علبة سجائر، قلت له إنني كنت لدى طبيب النساء والتوليد، فنظر إلى النقود والسجائر في يده وضحك وضرب كفه بكفي، انصرفت، معتبرا هذه الليلة كجزيرة هادئة صادفتها في بحر حياتي المضطرب، ارتحت عليها قليلا، ولن أعود إليها مرة أخرى.

موت الأب

- 1 -

فيلم أجنبي، بلغة غير مفهومة، ودون ترجمة، وهواء بارد من تكييف يصعب تحديد مكانه في الظلام، وفي النهاية يصل الجميع إلى ما يريد سوى البطل.

هل هذه هي الحياة؟

لو تزوجت خالتها مريم وأنجبت، لربما كان ابنها قد تزوج من واحدة أخرى وأنجبا ابنا يتزوج من مريم الصغيرة، كان سيحبها لأنها على اسم أمه، وتشبهها كما تشبه فاتن حمامة وفيروز.

- 2 -

أبوها حين يريد أن يخيفها كان يحكي لها حكاية الرجل الذي يمشي عبر الحوائط، ويأكل الزجاج، ويستطيع حمل الأهرامات الثلاثة معا بذراع واحدة، يقول لها إنه سيستدعيه إن لم تسمع الكلام، فتطيعه لكنه كان يغلق أنوار الشقة ويستدعيه، ويوقد عود كبريت ليشعل سيجارته، فتبرق عيناه الزرقاوان، وتخاف هي.

حين تزوجت كانت تخاف من إطفاء النور، حكت لزوجها حكاية الرجل المخيف، فأضاء النور وأتى بزجاجة رقيقة وحاول أن يفتتها بأسنانه، حتى

يقول لها إنه يأكل الزجاج، فجرح لسانه وسال منه الدم، وأتى لها بصورة الأهرامات الثلاثة وحملها بذراع واحدة، فضحكت، وقالت له:

- أرني كيف ستسير في الحائط.

فدخل وخرج من فتحة الباب، وقال لها:

- هكذا.

ضحكت، وحاولت أن تتغلب على خوفها من الظلام.

- 3 -

كأنها توحدت تماما مع رغبته، لم تقرأ فيروز حرفا في كتاب بعد أن أحرق أبوها رواياتها الرومانسية، كان صعبا وقويا مثل كل الآباء في الروايات الرومانسية، الذين تفشل معظم قصص الحب بسببهم، حتى قبل هذه الواقعة لم يكن يحاول الاقتراب منها، في البداية فكرت أنه يفضل لو كانت ولدا، ارتدت ملابس الأولاد حتى يحبها، وأخفت شعرها بـ"كاب" صغير.

تسير بجواره في الشارع، يظنها الأولاد ولدا مثلهم، يبدأونها بألعابهم العنيفة فتتفوق عليهم، وهو لا يهتم بها، يكتفي أحيانا بالابتسام، أو بإشعال سيجارة وهو يأمرها ألا تلعب مع الأولاد.

غضبت أمها من أبيها لفترة وهي في بداية الإعدادية، فسافرت إلى البلد، وتركتها معه وحدهما في الشقة، كان يعد لها الطعام، ويجلس ليأكل معها أمام التليفزيون، ولا يتكلم معها إلا الكلام الضروري، تحاول أن تبدأ معه الكلام، فيجيب إجابات مبتورة.

في مرة سألته بعد أن انتهى إرسال التليفزيون فأطفأه، وقام ليدخل إلى النوم:

- لماذا تكرهني؟

نظر إليها طويلا، كأنما لم يتوقع هجوما مباشرا بهذا الشكل، ثم قال:

- أنا أحبك جدا.

- لا.. أنت تكرهني.

اقترب منها وربّت ظهرها، كانت المرة الأولى التي يفعل فيها هذا، شعرت بيده غريبة على جسدها، رفعها ومسح بها على شعرها الطويل:

- لا أكرهك.

ثم دخل لينام.

في اليوم التالي جلس بجوارها على السرير وهو يوقظها، أفطر معها، لم يتكلم لكن كان يبتسم لها كل قليل، تحسنت معاملته لها في الأيام التالية، حتى عادت أمها إلى البيت مرة أخرى، فرجع إلى طريقته القديمة، كان تفسير أمها الوحيد للطريقة التي يتعامل بها أنه:

- هذا حاله.. بارد.

حتى بعد أن مات، لم تفكر في شراء رواية واحدة، كأنها ظلت خائفة، أو نسيت، أو لم تعترف بموته تماما، ورثت عنه إدمان الجلوس أمام التليفزيون، في انتظار دائم لفيلم أبيض وأسود، ظلت مثله لا تحب الأفلام الملونة، وأخلصت تماما للأبيض والأسود الذي حفظت أفلامه عن ظهر قلب.

لديها الآن 3 أجهزة تلفزيون، واحد في الصالة، وواحد في غرفة النوم، وواحد في المطبخ، لم تقف لتطبخ منذ فترة، ولم تشغل تلفزيون غرفة النوم أيضا منذ وقت، تتفرج فقط على تلفزيون الصالة، وتكتفي كثيرا بتشغيل الأفلام التي تحبها على اللاب توب وتجلس به في أي مكان.

- 4 -

بمجرد أن شاهد أبوها التلفزيون لأول مرة عند صديق له فتن به، كان دخوله إلى مصر لم يتجاوز أعواما قليلة، لدرجة أن الجرائد تنشر أعداد الأجهزة الموجودة داخل القطر، وكان شراؤه بالحجز، فدفع الثمن وسجّل اسمه، وجلس في الانتظار، وأمها في هذا الوقت في منتصف الحمل، وقبل أن تلد بيوم واحد دخل عليها ومعه عاملان يحملان الجهاز ذا الحجم الضخم.

تخبرها أمها أنه تغير تماما منذ هذا اليوم، لم يكن يفارقها لحظة واحدة، يظل يدور خلفها من غرفة إلى أخرى، وحين تقف لتطبخ يحضر كرسيا ويجلس معها في المطبخ، حدث هذا في الشهور الأولى للزواج، فاطمأنت على مستقبل حياتهما، وقالت إن حظها جيد، لكنها تتحسر على حالها:

- من يوم دخول هذا المخروب من الباب.. وأبوكِ إنسان آخر.

لم يعد ينفعل بأي شيء، تضبطه وهو يضحك بصوت عال أمام إسماعيل يس، وعبد المنعم إبراهيم، أو وهو يبكي بالدموع أمام أفلام عبد الحليم حافظ، وبمجرد أن ينتهي الفيلم يظل شاردا، يتحرك في الشقة

كأنه مغيب، وربما يصطدم بالأثاث، اختزل حياته في التليفزيون، كأنه يعيش داخله، يذهب إلى العمل ويعود إليه رجوعه إلى حياته الحقيقية.

لا يقوم من أمامه إلا حين ينتهي الإرسال، بقراءة آيات القرآن، ثم السلام الوطني، ويستيقظ مبكرا عن عمله بساعتين حتى يحضر بداية الإرسال من أوله بالقرآن الكريم أيضا.

بعد أن مات أخبرتها أمها أنه لم يمسسها مرة واحدة بعد دخول التلفزيون إلى البيت، وأنها ذهبت إلى المشايخ فقالوا إنه مسحور ومربوط، لم تجرؤ أن تفاتحه في الأمر، لأنه كان لا يكلمها غالبا، بكت الأم وهي تخفض صوتها وتقول لها إنها لم تعرف الرجال في عمرها الطويل إلا لمدة أشهر فقط، وقبل أن تدخل إلى غرفة العمليات كانت تنظر إلى ثديها العاري بحنان، تكلمه بصوت مرتفع، وتقول له:

- لك حق، طوال عمرك وأنت محروم.

حاولت فيروز أن تجد سببا لتوقفها عن القراءة بعد وفاته فلم تجد، ربما تكون قد أحبته في أيامه، أو تعاطفت معه، لكنها لم تجد له عذرا فيما فعل، لماذا قرر في تلك اللحظة فقط أن يتدخل في حياتها، لماذا لم يمت دون أن يزرع في قلبها الكراهية من ناحيته؟

- 5 -

ذات ليلة استيقظت قبيل الفجر لتذهب إلى الحمام، وجدته جالسا أمام التلفزيون الذي يصدر الصوت المميز بعد انتهاء الإرسال: شششششش، دخلت الحمام وعادت فوجدته كما هو، ظنت أنه غير منتبه، توجهت

إلى التلفزيون لتطفئه، فطلب منها أن تتركه، قال إن هذا الصوت يريح أعصابه.

جلست بجواره، فوضع ذراعه على كتفها، حكى لها عن طفولته، وعن عمله، وهو صغير مرض أبوه بعد موت أمه، كان في العاشرة من عمره، يذهب بأبيه إلى الحمام بصعوبة، يجلسه، ثم يغسل له جسده بعد أن ينتهي، يدرس وينفق على البيت، وحين دخل الجامعة، فقد أبوه السيطرة على جسده، وصار لا يتحكم في إخراجه، يطلب منه يوميا بعد المغرب أن يحمله على كتفه ويخرج به ليلف المنطقة كلها، وكثيرا ما يبول أو يتبرز على كتفه وهما سائران، ويرفض أن ينزل أو أن يعود إلى البيت.

ذات مرة شعر به يثقل على كتفه فجأة، فعدله وأمسك بذراعيه، وواصل الجولة، حتى لا يغضب منه، وحين عاد به إلى البيت وأنزله فوق السرير، وجده ميتا.

أحببت فيروز أباها في هذه اللحظة، شعرت بثقل ذراعه فوق كتفها، فأحست أنها تحمله، لم تغضب منه حين قال لها إنها لو كانت ولدا لأسماها أنور وجدي، قام من جانبها ودخل لينام، تمنت أن تلتقط صورة له دون أن تظهر عيناه فيها، انتظرت حتى علا صوت شخيره، وأحضرت الكاميرا من حجرتها، تسللت إلى غرفته على أطراف أصابعها، اقتربت من وجهه والتقطت الصورة له وعيناه مغمضتان، قلق عندما سطع ضوء الفلاش في وجهه، فتقلّب وأعطاها ظهره.

بعدها بأسبوعين خرج من البيت إلى العمل، وبمجرد أن خطا خطوتين في الشارع أتت سيارة مسرعة فصدمته، في البقعة نفسها التي

أحرق فيها كتبها الرومانسية، كانت تقف في الشباك، ورأت الموقف كله، وحين نزلت مهرولة إليه وجدت صاحب السيارة قد هرب بها، وضعت رأس أبيها المهشم على فخذها وعيناه الزرقاوان تحدقان فيها، شعرت أنها للمرة الأولى لا تخاف منهما.

بعلم الوصول إلى كرمة

حبيبتي كرمة.

في البدء حملتكِ بداخلي سنوات طويلة، وحملتك أمك تسعة أشهر، رأيتك قبلها، ضممتك إلى صدري، شممت أنفاسك الأولى، طبعت شفتاي أول قبلة على بشرتك، وأمك ما تزال تحت تأثير المخدر، دخلت بك أمك داخلها ثم خرجت بك الممرضة وهي تحملك بين يديها، جميلةً كنت كاللحظات السعيدة النادرة، صغيرة، ومغمضة، تقبضين بأناملك على لحظاتك الأخيرة قبل خروجك إلى الحياة كأنك تخافين من إفلاتها، حملتُك، وقبلتُك برفق، أخشى عليك من مشاعري، حاولت أن أحتفظ بك في حضني، لكن الممرضة جذبتك مني برفق رأيته أول قسوة تتعرضين لها في الحياة، وقالت إنها ستضعك في الحضانة، أدخلوك إلى غرفة مليئة بالمواليد، فكرت وقتها أنه يمكن أن يتم استبدالك، رغم السوار المعلق بمعصمك: كرمة - دينا وأنا لست موجودا، كأنها قيامة أولى ينادون فيها عليك باسم الأم، خفت، لكنني لمحت وحمة مميزة أسفل ركبتك اليسرى، اعتبرتها علامة لا تقبل الخطأ، ووقفت أمام الشباك الزجاجي المصمت لغرفة الحضانات أراقبك في ارتباك وإشفاق.

أنا لست سيئا جدا، ما حدث قد حدث، ربما نكون غير مناسبين لهذا العالم، ستكبرين وتفهمين، لا تتحاملي عليّ كثيرا، الحياة صعبة، ونحن فيها ضحايا آبائنا، أنت ضحيتي، ستدفعين ثمن اختياراتي، وحين تكبرين أتمنى أن تختاري أفضل، وألا تشبهيني، لكنك -يا قطعة من روحي- ستسيرين على خطواتي التي تلعنينها، أعرف هذا، عصبيتك، وإصرارك على ما تريدين، واتجاهك نحو الهدف مباشرة دون احتياج إلى مراوغات، تعرفين؟.. هذا يفقدنا الجميع مع الوقت، ها أنذا أقف أمام نفسي في المرآة لأحصي خسائري، فأجدني وحيدا وحدة مؤلمة أخاف منها عليك.

يقول طاغور: حين أقف أمامك عند انتهاء النهار، سترى ندوبي، وتعرف أنني نلت حصتي من الجراح، أصيبت أمي بالسكر والضغط وهي في الخمسين من عمرها يا كرمة، لا تقلقي، ليس لدينا تواريخ مرضية وراثية مقلقة، معظمها أمراض يتحمل نتيجتها المرء نفسه، حين تكبرين قليلا ستريننى أتناول حبة دواء يوميا بمجرد الاستيقاظ، على الريق كما يقول الأطباء، حبة يوميا منذ خمسة عشر عاما، كعلاج مزمن لقرحة المعدة، بسبب الضغط العصبي، أواظب عليها منذ مراهقتي، هذا جناه أبي عليّ، ولا أتمنى أن أجني عليك بأكثر من الحياة ذاتها، لا أتحمل أن أراك تذهبين إلى الأطباء بسببي، حينها سأمنحك قلبي هذا العليل، وحياتي المرصعة بالوجع، لن ينفعا بشيء في الغالب لكنهما من أجلك.

أفاقت دينا من مخدر الولادة، فأدخلونا إليها، حملتْك أمك وأعطتك صدرها، وأنا تحسست الوحمة علامتك المميزة، رسمة عشوائية تشبه

قلبي، خريطة، وطن أنتمي إليه وينتمي إليّ، سأظل طوال حياتي مربوطا بهذه اللحظة، بهذه العلامة، أصبح لقلبي عشق أول ونهائي، ستكبرين وتدركين أن حبي لك أمومي وليس أبويّا، أبحث فيك عن كل ما فقدته، رجل برج العذراء أنجب بنتا من برج السرطان، يتمنى لها حياة سعيدة، لكنه لن يستطيع أن يرسم لها خطوطا توضيحية لهذه الحياة، ولا يعرف أبدا كيف يمكن أن تكون سعيدة، ولا يملك نصائح لنفسه حتى يمكنه أن يهديها لك.

أنا لست سيئا جدا، لكنني كنت أود أن أكون نافعا أكثر، ليتني أرجوحة تركبينها فيداعب الهواء وجهك وشعرك فتضحكين، ليتني كوب تشربين فيه، موسيقى، أو لوحة بألوان مبهجة، أو عصفور، أو مشط تصففين به شعرك، أو فستان أبيض يداعب خيالك، أو شمس شتائية تدفئ أطرافك، أو كرة تركلينها فترتد إليك دون أن تتكلفي عناء الذهاب إليها، لكنني مجرد أب يحب ابنته، ويظل عاجزا عن ترجمة هذا الحب أو إثباته.

ربما تنجح روايتي، وحين تكبرين أكون قد كتبت دستة من الروايات أو أكثر، وحزت جائزة مهمة أو اثنتين. لو أنك ستهتمين بهذا، أو سيجعلك فخورة بي بشكل أو بآخر لاعتبرته مشروع حياتي، لكن الكتابة فخ، أرى في الندوات الأدبية التي أحضرها أحيانا، أناسا توحدوا بها، تركوا كل شيء وراءهم، بيوتهم، وزوجاتهم، وأطفالهم، ومهنهم المستقرة، سعيا وراء حلم زائف بالكتابة، رغم تواضع إنتاجهم، هل سأصبح مثلهم؟.. ما هو مقياس جودة الكتابة أصلا؟.. عدد النسخ المطبوعة، وعدد الطبعات التي تزوّرها دور النشر، أم الأخبار والمقالات الصحفية القائمة على

المعرفة والمجاملات؟ هل تحويل الرواية إلى فيلم أو مسلسل؟ هل الكتابات النقدية المدفوع ثمنها بالدولار والريال والعشاءات الفاخرة والليالي الحمراء؟

هل تحبينني كاتبا عميقا، أم كاتبا نجما، أم كاتب بيست سيللر، أم كاتب جوائز، أم كاتبا مغمورا، أم كاتبا موهوما بأن ما يكتبه لن يتم تقديره إلا بعد 50 سنة على الأقل؟

ألا إن في الجسد مضغة مؤلمة، إنه القلب يا صغيرتي، يحركنا كبوصلة تائهة، كلنا نستحق الشفقة، هل تعتقدين يا كرمة أننا نختار شيئا؟ هذا درس لا يمكنني أن أعلمك إياه، الحقيقة أننا نعيش لنلهث خلف سراب بقيعة نظنه ماء فنجري نحوه، سراب يسلمنا لسراب، ثم سراب، فسراب، نظن أننا اخترنا، وفي النهاية ندرك أننا عبيد أقدارنا التي لا يمكننا التمرد عليها.

يا كرمة، أحيانا يكون مكمن الخطأ في حياتنا أننا لم نحب أنفسنا، أحبي نفسك، ولا تحبي رجلا أبدا، الرجال ملعونون، ليس لأنهم أولاد كلب خائنون، أو لصوص مشاعر، أو يهوون كسر القلوب، ولكن لأنهم مرتبكون جدا، فيفعلون ذلك كله.

البنات يحببن أن يتزوجن رجالا كآبائهن، أنا لست سيئا جدا يا صغيرتي، ولكني أدعو الله أن يُبعد عنك أشباهي من الرجال، يكفي هذا الحزن القابع بداخلي كأنه عضو خفي من أعضائي.

تعبتِ وتعبتُ كثيرا يا كرمة حين نبتت سنك الأولى حتى تشق طريقها للخروج، كل الولادات مؤلمة، وتألمتِ وتألمتُ حين أمسك الصائغ

بأذنك الصغيرة ليثقب مكان القرط الأول، يا بنت، أغمضت عيني وأنت تصرخين وأنا ممسك بك، وعزائي أنك لن تذكري هذا الألم حين تكبرين، فالآلام يُنسي بعضها بعضا، ولحظات السعادة أيضا تذهب.

يقولون إن هناك يوما في حياة المرء لا تعود بعده كما كانت قبله أبدا، لدي عشرات من هذا اليوم، أهمها يوم قدومك إلى الحياة.

ربما أمزق كل أوراق الرواية قبل أن أطبعها، فلا ترى النور أبدا، لكنني سأحتفظ لك بهذا الفصل لتقرأيه حين تكبرين، هل ترينني سيئا جدا؟ مرتبكا؟ مرتعبا من الحياة؟ ذا طبع غريب؟ أم رجلا يريد أن تسير الحياة بكل ما فيها وفق قواعد مجنونة لا يعرفها البشر؟

كل شيء يموت، لكن أسوأ موت هو لقلب مازال ينبض بحركة ميكانيكية، يحمله تابوت على هيئة جسد يسير به إلى ميتات يومية، ليصبح كل سلام عابر، أو حضن مجامل، أو تربيتة كتف، مجرد عزاء متكرر، ليس كل من يسيرون حولنا أحياء، إنهم في الغالب، قبور متحركة.

حبيبتي، أنا محظوظ لأنك ابنتي، وأقاتل حتى لا تكوني تعيسة حظ لأنني أبوكِ.

فيروز.. مع خالص الأمنيات بالشفاء العاجل

أسبوع كامل أجّلت فيه فيروز فتح الرسالة الإلكترونية الواردة للدكتور ميخائيل على البريد الإلكتروني من الموقع، في النهاية فتحتها لتجد مجموعة جديدة من الأسئلة، صنعت لنفسها فنجان قهوة ثم جلست وقررت أن تجيب عليها بنفسها، حتى لا تضطر إلى إخبارهم بوفاة الدكتور ميخائيل، استعانت بالمعلومات التي اكتسبتها من الراحل، وبمعرفتها الشخصية، وبالبحث على الإنترنت، أجابت عن معظم الأسئلة التي وجدت لديها إجابات عنها، أرسلتها للموقع كما هي بأخطائها الأسلوبية والإملائية دون التدقيق الذي كان ميخائيل يحرص عليه:

- الأستاذ الكبير الدكتور ميخائيل:

أنا سيدة متزوجة من سنتين، والمشكلة أنني حتى الآن لم أمارس الجنس مع زوجي لأنه لا يجد المكان الصحيح، ولقد قمنا بعمل تحاليل أكدت سلامته ولكني لا أعرف ما الحل لهذه المشكلة.

- عزيزتي:

التحاليل ليست لها علاقة بهذه المشكلة، لكن المسألة جهل جنسي وعدم انسجام في العلاقة بحيث تصلان سويا إلى الحل، ففي بعض

الأحيان يكون الوضع نفسه مشكلة، فلا بد من الاستلقاء على الظهر وعدم فرد الساقين على امتدادهما ولكن لابد أن ينثنيا وتوضع أسفل الظهر وسادة، لكي ترتخي عضلات الحوض، والحل قبل أن يصف الطبيب مقويات أو منشطات هو أن يحاول أن يشرح لكما الجهاز التناسلي للأنثى وتشريحه، ومن الممكن أن يتلمس الزوج طريقه بالرؤية أولا.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لو سمحت يا دكتور أن تجاوب على سؤالي بسرعة لأني في ضيق من أمري.

دكتور وباختصار شديد أنا أعمل العادة السرية منذ ثلاث أو أربع سنوات وبانتظام شديد أي يوميا تقريبا.

المشكلة أني لا أعمل العادة السرية ككل الشباب بل أعملها وأنا مستلق على بطني وأبدأ بالتحرك بشكل غريب ثم يخرج المني بعد فترة فأرجو أن ترد على حالتي بشكل سريع.

- عزيزي:

تقول إنك لا تمارس العادة السرية ككل الشباب، والمشكلة تكمن في أن كل شاب يتصور أنه نموذج وحيد فريد نادر، الأفضل أن تقلل من معدل العادة السرية حتى لا تقع في إدمانها حتى بعد الزواج، فنسبة كبيرة من المتزوجين يظلون على إدمانهم للعادة السرية مما يهدد استقرار البيوت.

***

- مساء الخير يا دكتور.

مش عارفة، بحبه وبيحبني، واحنا الاتنين زي الفل، بس مش متظبطين سوا، انا مش فاهمة المشكلة فين، دا احنا كل يوم بننام في حضن بعض، كل يوم بنام بقميص نوم حتى في الشتا ده، ومفيش، مرات متباعدة قليلة، مش عارفة أحط إيدي ع المشكلة.. ممكن حضرتك تنورني، أو ممكن أدي لحضرتك العنوان وتيجي تزورني، وأنا تحت أمرك.

الزواج على قسيمة «طلاق»

- 1 -

لأن كل شيء لابد له من نهاية ما، قررت إضافة عقدة جديدة إلى حياتي.

اتفقنا على الزواج.

لم يمر موقف مداهمة ابن خالة بسنت لشقتي مرور الكرام كما توقعتُ، بكت كثيرا، ووضعتْ علاقتنا موضع مساءلة حول طريقة رؤيتي لها، حاولتُ التهرب بأنني لا أحب الزواج، وأنه مؤسسة فاشلة، وأنني خضت التجربة من قبل، لكنها أصرت على الزواج لتثبت لنفسها أنني لا أراها كما شك فيها وليد ابن خالتها.

وضعتني أمام الأمر الواقع وتحت ضغط إحساسي بالذنب تجاهها، رغم إدراكي أن حبي لها لا يحمل في أي من أجزائه رغبة في ربط مصيرينا معا على حساب مصير دينا وكرمة.

قررتُ أن أستسلم، وأن أتخلى عن جزء ما بداخلي يشعرني أنني مختلف، قلت لنفسي سأتعامل كبني آدم طبيعي وأسير في خطوات الزواج، ربما يكون هذا هو ما أحتاج إليه دون أن أعرف.

رتبت بسنت كل شيء مع أسرتها، قابلتُ أمها وأخبرتها أنني متزوج ولديّ بنت وأنني منفصل عن زوجتي انفصالا غير رسمي، فضلتُ الوضوح، مر الأمر سريعا، ووجدت نفسي في دوامة ترتيبات الزواج التافهة، من شبكة وقائمة منقولات وحجز قاعة أفراح، وحين أرغب في التراجع عن كل هذه الشكليات تضغط بسنت عليّ بأن الأمر يتعلق بصورتها أمام أهلها، فأرضخ.

-2-

كثفت من زياراتي لدينا وكرمة، وحين علمتْ دينا بأنني سأتزوج بسنت أصرت في طلب الطلاق لكنني رفضت، رغم ضغط والدها، قالت إنها حين رأت بسنت في المستشفى من 3 سنوات أدركت الأمر مبكرا، لكنها لم تتكلم في وقتها، بكت كثيرا، فقررت أن أتركها حتى تهدأ وتتقبل الأمر مهما طالت المدة، وحين أخبرت فيروز بأنني سأتزوج ابتسمت نصف ابتسامة وأخبرتني أنها لا تحضر حفلات زفاف.

أنهينا كل الإجراءات، اشترينا الشبكة والفستان الأبيض والبدلة وحجزنا الكوافير والقاعة وأسبوع العسل في فندق بشرم الشيخ، بحثت عن مأذون على الإنترنت، أخذت رقمه واتصلت به، اتفقنا على مبلغ يتقاضاه مقابل كتابة العقد، وطابع الأسرة، وإحضار شهادة طبية مضروبة تثبت صلاحيتنا أنا وبسنت للزواج.

دعت بسنت كل أقاربها، ودعوت 4 أو 5 من أصدقائي بينهم يسري فوتو شوب ومحمود سمير الذي يقترب عمره من الستين، حضر الفرح

باعتباره خالي بإيعاز من بسنت حتى لا أبدو أمام أهلها دون أقارب، فأهلي لن يقبلوا أبدا بفكرة الزوجة الثانية، خصوصا أنهم يُجلّون دينا وأهلها، ويرون أنها مظلومة معي طوال الوقت.

-3-

كتب كتاب، ودخلة.

مر حفل الزفاف بسيطا وجميلا، استسلمت تماما لكل الطقوس البهلوانية لمنظمي الحفل، كجندي يطيع الأوامر في المعركة، أمسك بيدها.. ارقص معها.. لف ذراعك حول رقبتها.. اجلس على الكوشة.. قم.. اجلس.. ضع يديك على خصرها.. اشرب معها الشربات بالكؤوس المتبادلة.. اقطع التورتة وأنت ممسك بيديها.

التقط المصور صورا رديئة، دمعت أمها، ورقص أصدقائي مجاملة، ووضع لنا عمال البوفيه بعض ما تبقى من الطعام في علبة من الورق المقوى وأرسلوه على الغرفة المحجوزة في الفندق ضمن اتفاق إقامة الزفاف لديهم.

بدت بسنت سعيدة، وكنت سعيدا، صعدنا الغرفة وأغلقنا بابها علينا، ثم مرت الأيام سريعا، سريعا جدا، ثلاثة أشهر وثلاثة أيام فقط من لحظة إغلاق باب ليلة الدخلة علينا، جلسنا بعدها أمام المأذون، أنا وبسنت وأمها، وبنفس إصبعيْ الإبهام اللّذين بصمنا بهما على قسيمة الزواج، وضعنا بصمتينا على قسيمة الطلاق.

قبل نهاية العرض

كما في الأفلام القديمة، أمسكت فيروز كف أمها، رفعتها إلى مسافة 20 سنتميترا في الهواء ثم تركتها فجأة، فهوت يد الأم جانبها مباشرة دون أدنى مقاومة، ولأنها كانت لا تثق كثيرا في هذه الأفلام قالت: ربما تكون نائمة، وربما تكون الممرضات قد أخطأن، مالت بخدها أمام أنف أمها، وهي تمني نفسها أن يلفحها النفس الخارج دافئا يحمل رائحتها، فلم تشعر سوى بالبرد والخوف.

وضعت أذنها على الفراغ الذي خلفته عملية استئصال الثدي للقضاء على الورم، فلم تسمع سوى الصمت، تأكد لها أنها تلصق أذنها بجثة أمها التي لن تراها مرة أخرى بعد ساعات.

هذا المشهد، ثم مشهد أمها وهي عارية وقت الغسل سيطرا على فيروز وهي تلد ابنتها، أول مرة ترى أمها عارية تماما، اندهشت تماما من تطابق شكل جسديهما، كأن جسد أمها هو النموذج المؤكد الذي ستصبح عليه حين تكون في سنها، فتمنت أن تموت مبكرا.

طويلة وبيضاء وممتلئة قليلا، وثديها الوحيد المتبقي متهدل، كأنه حزين لفراق رفيقه. وجهها مزرقّ ومتألم، فسر لها الطبيب هذا فيما بعد بأنه من الأدوية الكيماوية.

رفضت فيروز أن يغسلوا أمها بماء بارد، قالت إن أمها كانت تكره الماء البارد في حياتها، فغسلوها بماء دافئ، فاختفت الزرقة وملامح الألم قليلا، وحين بدأت المُغسِّلة في سكب الماء على فخذيها شعرت فيروز ببرودة في عظامها وأحست أن هذا النصف السفلي يخصها هي، فارتعدت وضمت ساقيها بقوة وتوتر.

صرخة واحدة صرختها حين أنزلت البنت من بين فخذيها، رأتها صلعاء تماما فتذكرت رأس أمها الذي صار أملس، بعد أن سقط شعرها كله بفعل الأدوية، بكت البنت، فخافت عليها من شبح المرض الذي أعلن عن دخوله في العائلة.

بمجرد أن أمسكت بابنتها بعد الولادة، مدت فيروز إصبعيها وفتحت جفني البنت، وعندما اطمأنت إلى أن عينيها ليستا زرقاوين كعيني جدها احتضنتها، وحين سألوها:

- ماذا ستسمينها؟

قالت بضعف:

- لا أعرف.

- 2 -

قبل وفاتها بأسبوع، كانت الأم مريضة جدا، تتألم بشدة وتتكلم بصعوبة، جلست فيروز بجوارها:

- نذهب إلى المستشفى؟

أشارت برأسها رافضة، ثم طلبت منها أن تجلسها، فأسندتها فيروز حتى اعتدلت ووضعت وراء ظهرها وسادتين واقفتين.

قالت الأم:

- أريد أن أشرب.

جرت إلى المطبخ وأتت لها بكوب ماء، رشفت منه الأم وهي تتحسس موضع ثديها المبتور، ثم تضع يديها أسفل السليم، وترفعه فيدخل جلبابها تحته.

سألتها فيروز:

- أحضر لك طعاما؟

هزت رأسها رافضة.

- تنامين؟

تكلمت بصعوبة:

- تعرفين خالتك مريم؟

- آه.

- أنا كنت أكذب عليكِ.

- في ماذا؟

- في حكايتها.

- أي حكاية؟

- ليس لديك خالة اسمها مريم .. وأنا ليس لي أخوات.

وضعت فيروز ظهر يديها على جبهة أمها، رفعت الوسادات من خلف ظهرها، وحاولت أن تعيدها إلى وضع النوم، فتضايقت الأم:

- كنت أكذب من خوفي عليك.

أحبت الأم اسم مريم، وتمنت أن يكون اسمها هي، حملت من زوجها أثناء الخطوبة، لم يتمكنا من إجهاض الجنين، فجاءت فيروز بعد 6 أشهر فقط من زواجهما المتعجل.

أكملت لها أمها:

- أنا مريم، تذكرين الصورة القديمة لي أنا وأبيكِ عند الهرم.. ألم أكن أشبه فاتن حمامة؟.. تذكرين صورة الزواج.. قالوا لي إنني أشبهها، حتى إن أباكِ كان يناديني يا آمال.. لأنها ظهرت باسم آمال في أكثر من فيلم.. وكنت أتمنى أن تمثلي حتى تصبحي مشهورة مثلها.

تضاعفت قسوة حالتها، فنقلتها إلى المستشفى، وهي لا تتخيل أنها كانت طوال عمرها تحب شخصا لم يوجد من الأساس.

الرحم في العائلة ضعيف منذ الجدة الخامسة واسمها توحيدة، كن لا يلدن إلا مرة واحدة فقط، بعدها يرفض الرحم حمل أي جنين أو الاحتفاظ به، حتى إن أم فيروز لم توافق على فكرة الإجهاض حين اقترحها عليها زوجها لأنها تعرف أنها لن تستطيع الإنجاب مرة أخرى.

- 3 -

قبل وفاة الأم بيومين أخبرتها فيروز بموعد عرض مسرحيتها في الجامعة حتى تخفف عنها، كانت شبه ميتة، استعادت قدرا يسيرا من عافيتها، وأصرت على الخروج من المستشفى ومشاهدة العرض.

قبل نهاية العرض سقطت الأم فاقدة الوعي، جذبت اهتمام القاعة كلها، نزل الممثلون من على الخشبة، تحلقوا حولها مع الجمهور، وأعادها المخرج بسيارته إلى المستشفى، ولم تفق من الغيبوبة إلا في عالم آخر.

- 4 -

في أول يوم ذهبت فيروز بابنتها إلى المدرسة كما اتفقتا لم تبك البنت، ظلت مبتسمة وممسكة بمصروفها في يدها، تتحرك ببطء خوفا على مريلتها الجديدة، وبمجرد أن أغلق الباب خلفها، لم تستطيع فيروز الوفاء بالاتفاق فبكت هي.

في البيت بعد المدرسة سألتها:

- ماما.. لماذا نذهب إلى المدرسة؟

- لكي نتعلم.

- ولماذا نتعلم؟

- لكي نصبح مهمين.

- وهل أنت مهمة؟

- لا أعرف.

- بابا يذهب إلى الشغل، إذن هو مهم.. وأنا أذهب إلى المدرسة، إذن أنا مهمة.. أنت لا تذهبين إلى أي مكان.. أنت لست مهمة.

خلعت فيروز عن البنت ملابس المدرسة وألبستها ملابس البيت، وقررت أن تعمل.

لم يعارض زوجها، وحين ذهبت مع البنت إلى المدرسة في اليوم التالي، سألت الناظر عن عمل، بعدها بأسبوعين كانت تعمل مدرسة حساب في مدرسة ابنتها الابتدائية الخاصة.

أتت لها بحصالة تدخر فيها جزءا من مصروفها، فخبأت البنتُ الحصالة في حقيبتها، وباعتها في المدرسة سرا، وأنفقت النقود، وذات يوم أثناء عودتهما معا من المدرسة بكت:

- البنات يسخرون مني ويقولون لي: يا "بنت الأبلة".. لا أريدك أن تصبحي أمي.

صارت البنت تنام طول النهار وتستيقظ طوال الليل، تذاكر كثيرا لأنها قررت أن تصبح مهمة، ترقص كثيرا لأنها تحب الرقص.

تتجنب أمها، وتعتبر أباها غير موجود، وهو غير مكترث بهما، يغلق حجرة مكتبه على نفسه ويغرق في رسم الخرائط، يرى أن حل كل مشكلات البلد يبدأ من التخطيط العمراني السليم، يقول إن هذا ما تعلمه في فرنسا ويندم أنه عاد، ويهدد فيروز بأنه سيهرب منها عائدا إلى باريس، يغلق على نفسه ولا يخرج إلا حين تشغل هي فيلما فرنسيا في التليفزيون وترفع صوته حتى يسمعه، فيخرج، يجلس أمام التليفزيون، لا يهتم

بالمشاهد الداخلية، بمجرد أن يأتي مشهد خارجي فيه شارع وسيارات ومشاه ينهض من مكانه، يقترب جدا من الشاشة منفعلا، وحين ينتهي الفيلم يجري مسرعا إلى الحجرة ويغلق على نفسه ليغيب داخلها أياما كاملة.

- 5 -

تجلس مع ابنتها تصفف لها شعرها، تضع لها خليطا من الزيوت، شعر ابنتها ليس ناعما مثلها ولا مثل جدتها، جاء خشنا ومجعدا مثل أبيها مما منحها تفصيلة رجولية تحملها فوق رأسها لا يمكنها الهرب منها، تحكي لها عن جدها وجدتها، وتخاف من نظراتها القاسية أحيانا.

كلما كبرت البنت وازدادت جمالا خافت عليها أكثر، ملامحها تتحور لتأخذ شكل الجدة وشكل فاتن حمامة وشكل فيروز الصغيرة، وكلما خافت عليها فيروز ابتعدت عنها، وحين أتت الدورة الشهرية للبنت للمرة الأولى لم تخبر فيروز، ولم تعرف هي إلا في المرة الرابعة أو الخامسة، حينها أيقنت فيروز أنها ستموت وحيدة، لم تستمر فرحة فيروز بأن ابنتها لم تأخذ لون عيني جدها الزرقاوين طويلا، لأن البنت أخذت كل طباعه، تظل هادئة وغامضة ثم تثور فجأة ولا تهدأ إلا حين تفعل ما تريد، ليست عنيفة، لكن غضبها قاس ومؤلم، لا تعترف بالشتاء وتلبس ملابس الصيف طوال العام، وحين تمطر تخرج لتقف في الشارع حتى تكف تماما، فتعود مبتلة ومنتشية، لا تكلم أحدا ولا تقبل أن يكلمها أحد.

تجلسها فيروز أمامها وتحكي لها حكاية قديمة عن خالة اسمها مريم كانت تشبه فاتن حمامة في فيلم أيامنا الحلوة، حملت من

خطيبها وماتت وهي تحاول الإجهاض، فتضجر البنت، تقول إنها لو حملت من خطيبها فلن تجهض نفسها حتى لو تركها، وإنها لا تحب فاتن حمامة ولا عبد الحليم حافظ، ولا الأفلام العربي الساذجة.

تحكي لها عن جدتها التي كانت تحلم أن تصبح ممثلة، فلما أخفقت أرادت لابنتها أن تصبح ممثلة، حملتها إلى استوديو مصر وعمرها 6 سنوات، وحين يأتي فيلم الأرض في التليفزيون تنتظر المشهد الذي ظهرت فيه، وحين يقترب تقف بجوار التليفزيون، تشير بيدها إلى نقطة غير واضحة المعالم تمر سريعا، وتقول لابنتها:

- أنا هذه.

لا تهتم البنت، تقول إنها لا تخاف من سرطان الثدي، وإن الثدي نفسه ليست له أهمية، وإن سبب تفوق الرجال هو أنهم بلا أثداء.

تكبر البنت وتقرر الرحيل مبكرا جدا، وحين يشتد المرض النفسي بأبيها، ويعلن عزلته، ترسل لها فيروز لتخبرها، فلا تهتم، وتقول:

- كل واحد حر، يعمل ما يريد.

تمسك فيروز رسالتها باكية.

- 6 -

تسألها الممرضة:

- لا تعرفين؟.. كيف لا تعرفين ماذا ستسمين ابنتك؟

اتفقت فيروز مع زوجها على أكثر من اسم للبنت، لكنهما لم يحسما أمرهما.

تضحك الممرضة:

- غريبة جدا.

فجأة يأتي الاسم على ذهنها، فتزعق كأنها اكتشفته لتوها:

- سأسميها مريم.

فوق الأرجوحة

- 1 -

فشلت الثورة سريعا، واقتنع الجميع بهذا.

أصبحت أتعامل مع الأخبار المحبطة كمغسّل أموات، يطهّر ويكفّن ويلقي في المقبرة دون أن يسمح لحياته بالتأثر بعمله.

فيروز، وبسنت كلتاهما تمثل، ولم تتقدما في التمثيل، لماذا يحب البعض تجسيد حياة الآخرين، ولماذا يفضل الجميع رؤية أشخاص يجسدون حياة ليست لهم؟ ربما لأن الحياة قصيرة، لا تسمح لنا بالتلصص على حياة باقي البشر كما يجب. في النهاية توقفت فيروز وبسنت عن التشخيص وسط أناس يمثلون على بعضهم البعض أدوارا ليست حقيقتهم، ولم يكتبها أو يخرجها لهم أحد.

بحثتُ في إشارات مرور كثيرة عن زوج فيروز الذي لم يعد يقابلني منذ فترة، فلم أجده، سألت عنه أكثر من ضابط وأمين شرطة مرور، فظنوني مجنونا، فكرت أن أسأل فيروز كيف تصل إليه، ثم تراجعت عن الفكرة، فربما لا تحب فكرة لقائي به من الأساس.

استيقظت ذات صباح وأخذتني العزة بالكتابة فكتبت مقالا طويلا أحلل فيه الأوضاع الحالية في مصر، وأرسلته لسكرتارية التحرير لنشره،

ففوجئت برئيس التحرير يطلبني في مكتبه، أجلسني أمامه وسألني عن سن كرمة فأجبته:

- 6 سنوات.

قال لي:

- ربنا يخلي.

ثم نصحني أن أنسى هذا المقال نهائيا، ابتسم لي وهو يهز رأسه بمعنى أنت فاهم، وأنا فاهم.

هززت له رأسي، وخرجت.

- 2 -

مرت شهور زواجي الثلاثة بـ"بسنت" مقسمة كثلاثة أثلاث، انقطعت فيها عن زيارة دينا أو الاتصال بها نهائيا.

القسم الأبيض: أسبوع العسل في شرم الشيخ، بعض الأيام يمكن ادخار جمالها لاستحلابه فيما تبقى من العمر.

القسم الرمادي: شهران بعد العودة إلى القاهرة، طفت على السطح أنانية العشاق، لترفض بسنت أي تلميح من قريب أو بعيد لفكرة أو إمكانية عودتي إلى دينا وكرمة، حتى لو بشكل عابر، رغم أننا اتفقنا قبل الزواج على أنني سأعود إليهما بعد الزواج لنصف الوقت، المشكلة لم تكن في رفض بسنت، المشكلة في هيستيرية الرفض التي أحالت أيامنا إلى جحيم مستعر.

القسم الأسود: بدأ بحملها سكينا وتهديدي بقتل نفسها إن لم أنزل معها للمأذون للطلاق في السابعة صباحا، انتظرناه في الشارع أمام المكتب حتى جاء من أجلنا خصيصا في التاسعة صباحا، وقبل توقيع قسيمة الطلاق تصالحنا. اعتذرت بسنت، وبكت، وقالت إنها لا تعرف لماذا تفعل ذلك. أنا أعرف، حياتنا كانت ستصبح سعيدة لو أن بسنت هي زوجتي الأولى، أو أنني لم أفكر في الرجوع لدينا وكرمة.

انتهى هذا القسم الأسود بـ"طلقتين"، إحداهما طلقة شفوية ونحن في السيارة عائدين من عند المأذون، ندمنا عليها معا، ذهبنا بعدها في اليوم التالي إلى دار الإفتاء وقال الشيخ إنها طلقة واقعة، ثم طلقة ثانية بعدها بأيام لدى مأذون نصاب استغل الموقف في حلب أكبر قدر من النقود مني.

- 3 -

عدت محملا بخيبتي وحقائب ملابسي إلى دينا، وقفنا متواجهين على باب الشقة، نظرت لي بحب وحزن، حملتْ حقائبي وأدخلتها، وأعدت لي الطعام، أخبرتُها بأنني طلقت بسنت، فلم تبد رد فعل.

دخلتُ وقبلتُ كرمة وهي نائمة، ارتميت بجوارها على السرير بملابسي ورحت في نوم عميق، استيقظت في الصباح فلم أجدهما، وجدت إفطاري مجهزا وبجواره ورقة من دينا تطلب فيها الطلاق.

ابتسمتُ وتخيلتُ أنها طريقة لإعلان سخطها عليّ وعلى ما فعلت، التمست لها كل العذر، أفطرت واستحممت وارتديت

ملابسي ونزلت إلى الجريدة، فوجدت على مكتبي خريطة جديدة وأكثر وضوحا، سألت ساعي المكتب عمن وضعها على مكتبي فقال إنه لم ير أحدا، فتحتها وحاولت أن أفك رموزها، فوجدتني أفهمها تماما، وضعتها جانبا وقلت إنني سأقرأها بتأنٍّ أكثر حين أعود إلى البيت، قمت لأتابع بعض الأخبار في صالة التحرير، فوجدت زميلات قسم الفن وبعض زميلات من أقسام أخرى يرتدين السواد، فمزحت معهن وقلت:

- حالة حداد جماعي؟

أخبرنني أن هناء قُتلت في شقتها بحلوان، حيث تعقّبها سائق توك توك كانت تركب معه أحيانا لتصل إلى مترو الأنفاق، وحين علم أنها تقيم بمفردها بالشقة، تسلل إليها ليلا وقتلها وسرق هاتفها المحمول ومصاغها البسيط وفر هاربا، إلا أنه وقع في قبضة الشرطة في نفس الليلة بعد أن باع الموبايل لمحل موبايلات في المنطقة.

عدت إلى مكتبي مصدوما فوجدت أن الخريطة قد اختفت، حاولت البحث عنها دون جدوى.

أوجعني مقتل هناء وندمت على الليلة التي قضيناها معا، ستظل علامةِ غائرة في روحي.

الله يرحمك يا هناء.

رحمة ونور.

- 4 -

حاولت الوصول إلى دينا لنتفاهم، لكنها رفضت تماما أن تقابلني، تركت رسالة وحيدة لأبيها ليوصلها لي، وهي أنها تريد الطلاق ولن تتراجع عن هذا الطلب، بدا أبوها حياديا تماما، ومرتاحا، راحة من رفع يده عن الأمر وتركه لصاحبه الذي يديره جيدا، التقيته أكثر من مرة خارج البيت، لم يتكلم في السياسة كعادته، وكان يصطحب معه كرمة لأراها وأجلس معها، وفي المرة الأخيرة التي أبلغته فيها بأسى أنني سأنفذ لها ما تريد، صافحني ونظر لي نظرة ملؤها الشفقة عليّ، هذه النظرة أراحتني، على الأقل لم يكن ناقما بما فيه الكفاية.

- 5 -

لم ألتق دينا نهائيا منذ عدت إليها بعد طلاقي من بسنت إلا أمام المأذون، حاولتُ معها أن نصلح الأمور، طلبت منها أن تراجع نفسها من أجل البنت، وحاول معها المأذون، والشهود، وأبوها الذي صعب عليه أن يرى ابنته في هذا الموقف، لكن دينا الطيبة أصرت أن تريني قوة الجرح الذي جرحتُه لها، ألقيت عليها يمين الطلاق كما لقنني إياه المأذون، ونظرت بيأس إلى إبهامي الذي غمسه المأذون في الحبر.

كم مرة أغرقتك في هذه الزُّرقة المبهجة المحزنة يا صغيري البائس.

استيجماتزم

- 1 -

أرسل الموقع لفيروز كل النقود المتأخرة، تم نشر إجاباتها الأخيرة باسم الدكتور ميخائيل، دون أن يلحظ أحد شيئا، وأرسلوا لها دفعة جديدة من الأسئلة، جلست تجيبها باعتيادية وتركيز كمن يمارس عملا روتينيا، إلا أنها وجدت صعوبة في الرؤية، فقررت أن تعيد كشف النظارة.

- 2 -

قبل أن تتم الأربعين بأيام، لاحظت فيروز أنها تحتاج إلى أن تقترب من شاشة التلفزيون حتى ترى جيدا، وأنها لا تستطيع الجلوس أمام الكومبيوتر طويلا، وإذا بدأت في قراءة خبر في جريدة تشعر بصداع في عينيها.

قال الطبيب:

- استيجماتزم.

قالت في نفسها: أصبحت عجوزا إذن، وبدأت أعراض الشيخوخة تظهر.

وضع نقاطا من قطرة في عينيها، وأجلسها أمام كومبيوتر قياس النظر وقاع العين، به مكان لوضع الرأس وتجويف للذقن، أراحت ذقنها ورأسها، فكان وجهها محاطا، وشعرت بأنها ستفقد ملامحها.

نظرت في فتحة الجهاز التي تشبه العين السحرية فرأت بالداخل صورة فوتوغرافية لمساحة خضراء شاسعة، بها منطاد ملون يطير في الهواء، وبضع أشجار على البعد، تذكرت أغنية "فيروز": "بيت صغير بكندا، فأحبت لو كان لديها بيت صغير في هذا المكان الذي بالصورة وتمنت ألا "يعرف مكانه حدا".

طلب منها الطبيب أن تنظر في نفس الفتحة بعينها الأخرى، ففعلت، وكان هو من جانبه يحرك الجهاز ملّيمترات إلى أعلى وأسفل وأيمن وأيسر، حين قامت، استدار وجلس خلف مكتبه كما يفعل كل الأطباء، وبعد أن استقر على كرسيه الجلدي قال:

- ستحتاجين إلى نظارة.

- 3 -

حين ارتدت النظارة لأول مرة شعرت أنها ليست هي، وقفت أمام المرآة فرأت نفسها أوضح، هل زاد وزنها فجأة؟ هل خف شعرها من المقدمة؟ هذه الشعيرات البيضاء المتناثرة، هل كانت موجودة طوال الوقت؟ وهذا الباقي الأسود هل هو خدعة صنعتها أنامل كوافير ماهر بصبغة مستوردة؟

جلست فيروز أمام اللاب توب وعلبة السجائر وعلبة فيروز أناناس خالية ومائلة على جنبها، تفكر أنها أصبحت فيروز "أم نظارة".

ستجعل النظارة من يراها يفشل في التعرف عليها لوهلة، حتى يدرك التغير الذي حدث.

تأملت طويلا زخارف السجاد، ولون طلاء الشقة الذي اكتشفت أنه يحتاج إلى التغيير، وجلدها الذي ظهرت به تجاعيد لا تُرى إلا بصعوبة، وبعض النمش الخفيف، الشقة كلها بأثاثها بدت قديمة، تخص زمنا آخر، رأت على مقابض الأبواب بصمات زوجها وابنتها، وكل الشغالات اللاتي دخلن إلى الشقة، ألوان التليفزيون لم تعد باهتة كما كانت، حتى المطبخ أصبح مختلفا، فكرت هل كانت تحتاج إلى النظارة لكي ترى كل هذا، تذكرت حين قال لها الطبيب: "السن"، رفعت النظارة فتغير كل ما رأته، فأدركت أهميتها، النظارة آلة زمن، أعادت نظرتها إلى الحياة أعواما إلى الوراء، وألقت بها في حفرة كبار السن.

- 4 -

إجابات الأسئلة للموقع جعلتها تفكر أنها يجب أن تغير نظارتها، قال لها الطبيب إنها من الأفضل أن تجري كشفا ومقاس نظر جديدا كل سنتين، مرت 5 سنوات ومازالت تحتفظ بنظارتها الأولى، أصبحت تتعامل معها كأنها جزء من ملامحها، مثل أنفها أو شفتيها، وكثيرا ما تنسى وتنام بها، وحين تنظر إلى نفسها في المرآة بدونها تستغرب شكلها، تشعر أن هناك شيئا ما ناقصا، جسم النظارة حفر على أعلى أنفها وفوق أذنيها آثاره التي تظهر واضحة إذا خلعتها.

ذهبت إلى الطبيب، فهالها ما أصبح عليه، في المرة الماضية كان شابا في أواخر الثلاثينات من عمره، وسيما، ويهتم بمظهره، هذه المرة بدا مختلفا تماما، صار بدينا، يرتدي ملابس أوسع من مقاسه، زحف البياض على شعره، ونبت له كرش متوسط الحجم وعلامة صلاة في جبهته، وارتدى نظارة بإطار بلاستيكي، خافت أن تقيس التغييرات التي حلت به في هذه السنوات الخمس على نفسها.

أجلسها على الجهاز نفسه مرة أخرى، فقالت في نفسها إنه لم يطور أجهزته، وشكّت مسبقا في النتيجة التي سيعطيها لها، وضعت ذقنها ورأسها في المكان المخصص دون أن يوجهها، وكان يتعامل معها كأنها تزوره للمرة الأولى.

ظهرت لها نفس صورة الخضرة والمنطاد، لكن الألوان صارت باهتة وبدت الصورة قديمة كأنما مرّ عليها الزمن حتى وهي محفوظة داخل الجهاز، تخيلت البيت الصغير الذي أرادت بناءه في هذه البقعة الخالية، وقد نشأ حوله زحام من بيوت أخرى، ثمة سيارات مسرعة وضجيج، شعرت أن الحياة في هذا البيت مستحيلة، قررت أن تغادره.

سمعت صوت باب حجرة الكشف يفتح، ثم صوت امرأة دخلت وقالت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال الطبيب وهو جالس على الجانب الآخر من الجهاز، يحرّكه في كل الاتجاهات:

- وعليكم السلام.. تفضلي يا حبيبتي.

فهمت "فيروز" أنها زوجته، وبعد قليل ارتفع صوت بكاء طفل صغير.

حين رفعت رأسها من على الجهاز حتى تنظر فيه بالعين الأخرى، بدت الصورة مشوشة إلى حد ما، بفعل القطرة والتركيز بعين واحدة وإغماض الأخرى، لمحت الزوجة تجلس على كرسي زوجها وليس على كراسي المرضى، ترتدي خمارا واسعا، وأراحت الطفل على المكتب، يزحف فوقه، ولم تستطع تحديد ملامحها.

شعرت بنوع من التغيير في طريقة تعامله معها بعد دخول الزوجة، رغم أنه كان يعاملها بطريقة رسمية من البداية، لكن أضاف إليها شيئا من الجفاف، ربما ليثبت لزوجته أنه جاد مع مريضاته.

- 5 -

إلى حضرة الدكتور العزيز:

أولا.. أقدم شكري، داعيا أن يوفقكم الباري في أمور حياتكم لهذا الإنجاز الجميل في الأسئلة والأجوبة، فنحن العرب نخجل ونستحي أن نخبر أحدا بأمراضنا الجنسية حتى لو كان الدكتور، لكن هنا عنصر السرية يجعل الجميع يفتح قلبه.

سؤالي حول البرود الجنسي عند النساء، بحثت عنه كثيرا في الإنترنت، لكن لحد الآن لم أجد طريقة عملية لمعالجة هذا البرود، إذا

حدث لزوجتي برود جنسي بحيث لم تعد تحس بأي شيء ولا تتلذذ بالنكاح ولا تكرهه أيضا، لكنها لا تتمتع بي كما أتمتع بها.

كيف أرجع الحرارة الجنسية إلى زوجتي وبأي طريقة؟

لماذا لا يوجد لدى امرأتي أي إحساس بالجنس؟.. فقط تتظاهر بأنها سعيدة حتى لا أعلم ولا أتألم لما يحدث لها، هل الواجب عليّ أن أبتعد عن زوجتي لمدة طويلة حتى ترتاح؟.. وما هي المدة؟

شكرا.

عزيزي:

أكبر المآسي والكوارث أن نمثل المتعة الجنسية وكأننا في بلاتوه سينما، لابدّ من زيارة الطبيب وإجراء الكشف، لكي يحسم القضية ويعالج العلاقة المختلة، فمرضكما مرض علاقة وليس مرض فرد.

– 6 –

حين تسلمتْ فيروز النظارة الجديدة من محل النظارات وارتدتها، شعرت بنوع من الدوار، انتظرت أن يذهب لكنه ظل ملازما لها، فقررت العودة إلى نظارتها القديمة حتى تجري كشفا آخر لدى طبيب جديد، فكّرت أنها ستستبدل العدسات فقط حين تجري الكشف الجديد، دون أن تحتاج إلى تغيير الشنبر.

في المرة القادمة سأنتبه

- 1 -

مرت 8 أشهر، لم أحلق خلالها لحيتي، زرت طبيبا نفسيا، استقلت من العمل في الجريدة، وانقطعت عن فيروز التي اتصلت بي أكثر من مائتي مرة لم أرد عليها فيها، راودني هاجس الانتحار لكنه لم يكن مغريا بالشكل الكافي.

أقمت الشهور الثلاثة الأخيرة لدى أمي، أصبحت تعاملني هي وأبي بحنان زائد كأنني عدت طفلهما الوحيد، نأكل ونشرب ونشاهد التلفزيون ونلعب الورق ونخرج معا، أكان لابد من كل هذه الأعوام، ومن كل ما حدث حتى أستحق معاملة طفل؟

استيقظت اليوم بعد أذان المغرب، استحممت وحلقت لحيتي وقررت أن أنزل.

ركبت سيارتي بلا هدف، ظللت أدور بها في الشوارع حتى وجدت نفسي في مصر الجديدة، اتصلت بـ"فيروز"، فرحبت بي، سألتني إن كنت جائعا، فأخبرتها أنني ميت من الجوع، فقالت لي:

- تعال نطبخ معا.

- 2 -

وقفنا في المطبخ.

جائعين كنا، وهي متعطشة للطبخ، لها فترة طويلة تأكل أي شيء جاهز، الآن تريد أن تصنع شيئا بيديها، تسألني ماذا أريد أن أسمع، فأجيبها:

- أي حاجة.

تشغل أغنية من اللاب توب، يغنيها شخص ما على العود، أسمعها للمرة الأولى:

اللي اشترى منك موزنش

فمتحزنش ولا تشكيله

مع إن الأحزان بالكيلو

أو يمكن ربك ما أذنش

على أهون أسباب ماتجيش

أو على أهون أسباب تيجي

- 3 -

أحضرت فيروز من أحد أدراج المطبخ كتاب دليل الأسرة في الطبخ الحديث، فضحكت حتى اصطدم رأسي بحافة الثلاجة، وهي لا تفهم لماذا أضحك، ظلت تقرأ لي في الفهرس أسماء الأكلات لنختار معا ما ستطبخ، وأنا أتذكر نسخة دينا من الكتاب التي ألقيتها في صندوق القمامة أول الزواج، وقفت عند شركسية الدجاج، وسألتني:

- أوكي؟

ضحكت مرة أخرى وقلت:

- أوكي.

أخرجت دجاجة من الثلاجة، أعطتني الكتاب وطلبت مني أن أقرأ ، فقرأت:

المقادير:

- دجاجة.

- نصف كيلو أرز.

- 2 ملعقة سمن.

- مقدار من صلصة الشركسية.

- ملح وفلفل أبيض.

- مستكه وحبهان.

- كبدة الدجاج.

ارتدت مريلة المطبخ الكاروهات الموف، وأخذت تغني:

ليالي الشمال الحزيني

ضلي اذكريني اذكريني

أخبرتني بجدية أنها إذا لم تكن في حالة نفسية جيدة فإن هذا يؤثر على طعم الأكل.

أخرجت المقادير ووضعتها أمامها على رخام ترابيزة المطبخ.. وأنا أواصل القراءة:

الطريقة:

- ينظف الدجاج ويُكتّف ثم يشوّح في السمن، ويضاف إليه المستكة والحبهان.

طلبت مني أن أساعدها في تقطيع السلطة لأنها تخاف من السكاكين وأنها تجرح نفسها في كل مرة، وحين ينزل الدم تمصه في فمها، ضحكتْ، وتحركت بسرعة بين الأواني حتى وضعت الدجاج على النار، قالت وهي تضحك إنها تتذوق الأكل وهو على النار، وتلسع لسانها، وفي كل مرة تقول:

- في المرة القادمة سأنتبه.

طُرق الباب طرقة واحدة، سمعناها معا، لكن كلا منا شك إذا ما كانت طرقة على الباب أم لا، قالت إننا ربما نتخيل، صمتنا في انتظار الطرقة الثانية، فلم تأت.

جففت يديها في مؤخرتها، ثم اتجهت ناحية الباب، وأنا خلفها من بعيد، نظرت من العين السحرية ثم أشارت لي بأنها لا تجد أحدًا، اقتربنا أكثر، فتحت هي الباب بحذر، فوجدتْ الحقيبة التي تركتها في محل تصليح الساعات، نظرنا يمينا ويسارا فلم نجد أحدًا، خطت هي خطوات ونظرت في بئر السلم ثم هزت رأسها بتعجب وأخذت الحقيبة، دخلت وأغلقت.

نظرت فيروز من الشباك بسرعة حتى تلحق الذي وضع الحقيبة ونزل، فلم يخرج أحد من مدخل العمارة، نظرتْ في المقابل على المحل، فلم تجده، ليس أمام بيتها إلا الحديقة الواسعة القديمة.

سألتني فيروز إن كنت قد لاحظت وجود محل الساعات أمام بيتها في أي مرة، فأخبرتها أنني لم ألاحظ أي محلات.

تركت فيروز الحقيبة على جانب وهي شاردة ودخلنا المطبخ.

يضاف الماء والبصل والملح والفلفل، وتترك حتى تنضج فيرفع الدجاج ويصفى من مياه السلق.

يوضع الأرز في طبق مستدير مجوّف، وتصب في الفجوة صلصة الشركسية.

ترص قطع الدجاج مسلوقة أو محمرة داخل الأرز أو فوقه.

يُجَمَّل الطبق بالبقدونس وكبد الدجاج الناضج، ويقدم معه ما تبقى من صلصة الشركسية في القارب الخاص بذلك، وتقدم ساخنة.

تنتهي فيروز من الطعام وتتركه على النار، وتخرج دون أن تهتم بوجودي.

تفتح الحقيبة، وتخرج الساعات فتجدها كلها تعمل بكفاءة، ومضبوطة كلها على نفس الثانية، ونفس الـ: تك.. تك.. تك.. تك.

تعد الساعات فتجدها موجودة كلها إلا ساعة نادية.

تهمس:

يمر الوقت أسرع حين تكون الساعات معطلة.

تتذكر زوجها، والدكتور ميخائيل وابنتها وحفيدها وأمها وخالتها مريم فتنتابها حالة بكاء شديد، أحاول تهدئتها فتهدأ قليلا، تدخل المطبخ وتشير لي بأن أنتظرها على السفرة.

- 4 -

تضع فيروز الأكل على السفرة فآكل بنهم شديد، وحين ألتفت لها لأشيد بجودة الطعام تنهض وأرى أنها لم تأكل شيئا من طبقها.

تعود من غرفتها بملابس الخروج.

تطلب مني أن نمر على زوجها، وأن نزور قبر أمها.

نركب السيارة، فتخبرني أنها أنهت حكاياتها، وتسألني متى سأنتهي من الرواية؟.. فأجيبها:

- قريبا.

نلمح في الطريق رجلين توأمين يشبهان بعضهما تمامًا ويرتديان ملابس بنفس الألوان كأنهما شخص واحد، يعلقان إعلانا على أعمدة محطات الأتوبيس.

طلبت مني فيروز أن أستدير وأرجعها إلى بيتها مرة أخرى. سألتها:

- لماذا؟

- أريد أن آكل.. أنا جائعة جدا.

أوصلتها إلى باب عمارتها، قبلتني في خدي ونزلت من السيارة.

في مدخل العمارة مصدر وحيد للإضاءة، ورغم ذلك تخيلت أن فيروز تتحرك دون أن تترك ظلا، أخرجت فيروز الموبايل ورأيتها تطلب رقما، ظلت تكلمه أثناء صعودها السلم.

بعد اختفائها فوجئت بزوج فيروز مرتديا بدلة أنيقة ويمسك حقيبة جلدية غالية يدخل العمارة، استدار ورفع يده لي يحييني بابتسامة واسعة، حييته مبتسما، وأدرت محرك السيارة وانصرفت.

بعد أن ابتعدتُ بالسيارة رن موبايلي، نظرت إلى الشاشة فوجدت اسم بسنت وصورتها، ارتبكت ولم أدر هل أرد أم لا، حتى انتهى الجرس.

أدرت من كاسيت السيارة أغنية بنلف لوردة، واندمجت معها.

ونصبح ذكريات مجرد ذكريات

مجرد غنوة حلوة من ضمن الأغنيات.

رن الموبايل باتصال من بسنت مرة أخرى، مددت يدي نحوه ونظرت فيه للحظات، ورددت.

تمت

شكر خاص

للكاتب والدكتور خالد منتصر طبيب الأمراض الجلدية والتناسلية على إتاحته الأسئلة الطبية الواردة إليه وأجوبتها للاستخدام الفني في الرواية.

***

المؤلف

- محمد صلاح العزب.

- مواليد القاهرة 19 سبتمبر 1981.

- روائي، عضو اتحاد كتاب مصر.

- سيناريست، عضو نقابة السينمائيين المصريين.

- صحفي، عضو نقابة الصحفيين المصرية.

- كتب 5 مسلسلات تلفزيونية تم عرضها، و3 أفلام سينمائية قيد التنفيذ.

- البريد الإلكتروني: mohamedal3zab@gmail.com

الإصدارات:

1 - سرداب طويل يجبرك سقفه على الانحناء - رواية - 2003.

2 - لونه أزرق بطريقة محزنة - قصص - 2003.

3 - وقوف متكرر - رواية - 2007.

4- سرير الرجل الإيطالي - رواية - 2008.

5- سيدي براني - رواية - 2010.

6- كرسي قلاب - مقالات - 2010.

7 - ستوديو ريهام للتصوير - مجموعة قصصية، الدار المصرية اللبنانية، 2016.

حاصل على الجوائز الأدبية التالية:

1 - جائزة سعاد الصباح في الرواية - الكويت 2002.

2 - جائزة الصدى للمبدعين في المجموعة القصصية - الإمارات - 2004.

3 - جائزة المجلس الأعلى للثقافة - مصر - في القصة، مرتان: 1999 - 2004.

4 - جائزة المجلس الأعلى للثقافة - مصر - في الرواية 2004.

5 - الجائزة المركزية للثقافة الجماهيرية من وزارة الثقافة في المجموعة القصصية - مصر - 2003.

6 - جائزة نادي القصة في الرواية - مصر - 2002.

7- جائزة بيروت 39 لأهم الكتاب العرب تحت سن 40 عاما.

8- جائزة ساويرس في الرواية عن رواية سيدي براني - 2011.

9- جائزة ساويرس أفضل سيناريو عن سيناريو فيلم أوضتين وصالة 2011.

10 - جائزة أفضل كتاب بمعرض القاهرة الدولي للكتاب، عن مجموعة "ستوديو ريهام للتصوير" 2017.

***

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

"عام ونصف و6 أيام منذ الرسالة الأخيرة بيني وبين بسنت على الفيس بوك، افترقنا بعدها، بعراك حاد، أساء فيه كل منا إلى الآخر، ليلتها أغلقتْ حسابها عني تماما "بلوك"، لم أمسح رقمها من هاتفي، ولم يعد بيننا أي اتصال سوى بعض رسائل قصيرة "S.M.S" مني في المناسبات الرسمية كالعيدين وشم النسيم ورأس السنة.. رسائل موجهة لمجموعة كبيرة من الأصدقاء، بلا خصوصية، كنت أضع بسنت بينها، كنوع من التذكير المستمر بي، دون إبداء رغبة حقيقية في الرجوع، لم ترد هي على أيّ منها ولم أتوقف عن إرسالها كلما جاءت فرصة.

وفي هذه الفترة التي انقطعنا فيها أنا وبسنت، تزوجت دينا".

***

رواية عن رجل حائر بين أكثر من امرأة، يتأرجح بينهن كبندول الساعة، لايعرف الاستقرار أو الراحة النفسية. يقدمها الكاتب في لغة سلسة وجذابة. هل هو مجني عليه أم أنه يجني على كل من تدخل في دائرته؟!.. علاقات إنسانية مرتبكة تشبه الزمن والمدينة التي لم تعرف الهدوء في أي لحظة في تاريخها!

محمد صلاح العزب، روائي وسيناريست، صدرت له روايات منها: "سيدي براني"، "وقوف متكرر"، و"سرير الرجل الإيطالي". وكتب عددًا من المسلسلات التلفزيونية: "دلع بنات"، "حالة عشق"، "أزمة نسب"، "شقة فيصل"، "صد رد"، و"هوجان".. وحصل على عدد كبير من الجوائز الأدبية آخرها جائزة ساويرس – أفضل رواية، وجائزة أفضل كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب.

9 789777 952088

للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية